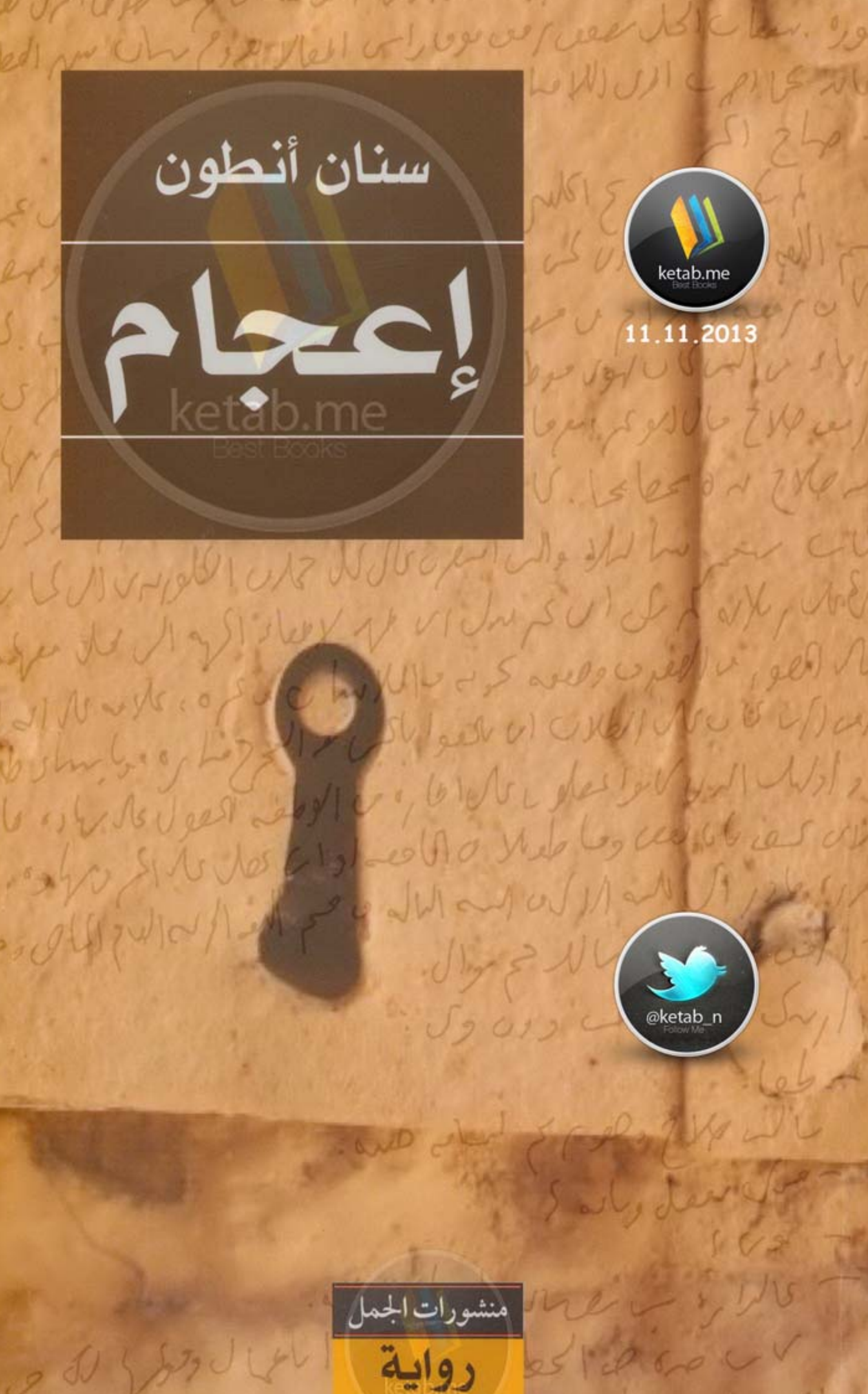


سنان أنطون
إعجام
ketab.me
Best Books
11.11.2013
@ketab_n
Follow Me
منشورات الجمل
رواية

سنان أنطون



رواية

منشورات الجمل

سنان انطون، إعجام، رواية

سنان أنطون: شاعر وروائي وأكاديمي ولد في بغداد عام ١٩٦٧. حصل على بكالوريوس في الأدب الإنكليزي من جامعة بغداد. هاجر بعد حرب الخليج ١٩٩١ إلى الولايات المتحدة حيث أكمل دراساته وحصل على الماجستير من جامعة جورجتاون عام ١٩٩٥ والدكتوراه في الأدب العربي من جامعة هارفارد بامتياز عام ٢٠٠٦.

نشر روايته الأولى «إعجام» عام ٢٠٠٣ وتُرجمت إلى الإنكليزية والنرويجية والبرتغالية والألمانية والإيطالية . نشر روايته الثانية «وحدها شجرة الرمان» عام ٢٠١٠ وترجمت إلى الإنكليزية والفرنسية. نشر روايته الثالثة «يا مريم» عام ٢٠١٢. له مجموعتان شعريتان: «موشور مبلل بالحروب» (ميريت، القاهرة، ٢٠٠٤) و «ليل واحد في كل المدن» (دار الجمل، بيروت، ٢٠١٠). صدرت ترجمة لأشعاره بالإنكليزية عن دار هاربر ماونتن برس عام ٢٠٠٧ بعنوان *The Baghdad Blues*. وترجم شعره إلى الإيطالية والألمانية والتركية والإسبانية والهندية. أخرج فلماً وثائقياً عن العراق بعد الغزو بعنوان *About Baghdad* (حول بغداد) صوّر في بغداد في تموز، عام ٢٠٠٣.

ترجم أكثر من مئتي قصيدة من الشعر العربي الحديث إلى الإنكليزية ورُشِحَت ترجمته لقصائد محمود درويش لجائزة بين Pen للترجمة عام ٢٠٠٤. ترجم «في حضرة الغياب» لمحمود درويش إلى الإنكليزية (دار آرشيبيلاغو، ٢٠١١) وفازت الترجمة بجائزة أفضل ترجمة أدبية في الولايات المتحدة وكندا من جمعية المترجمين الأدبيين لذلك العام. كما ترجم مختارات من أشعار سعدي يوسف صدرت بعنوان «أيهذا الحنين يا عدوي» (دار غريوولف، ٢٠١٢). عمل أستاذا للأدب العربي في كلية دارتموث في ٢٠٠٣-٢٠٠٥، ويعمل أستاذاً للأدب العربي في جامعة نيويورك منذ عام ٢٠٠٥. نشر العديد من المقالات والدراسات الأكاديمية عن الشعر العربي الحديث.

سنان أنطون: إعجام، رواية، الطبعة الأولى
الغلاف من تصميم المؤلف

تلفون وفاكس: ٢٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

«اكتبوا بلا تخوّف ولا تردّد أو تقيّد لاحتمالات أن تكون الدولة راضية أو غير راضية عمّا تكتبون»

(الرئيس القائد)

إضاءة

«وأما الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الإنسان حاجته ومقيّدة لها عن النسيان ومبلغة ضمائر النفس إلى البعيد الغائب».

«هناك حجاب آخر بين الخط ورسومه في الكتاب وبين الألفاظ المقولة، لأن رسوم الكتابة لها دلالة خاصة على الألفاظ المقولة، وما لم تُعرف تلك الدلالة تعذّرت معرفة العبارة».

«والألفاظ واللغات وسائط وحجب بين الضمائر وروابط وختام على المعاني، ولا بدّ من اقتناص تلك المعاني من ألفاظها لمعرفة دلالاتها اللغوية عليها وجودة الملكة للناظر فيها، وإلا فيعتاص عليه انتقاؤها».

(ابن خلدون)

«... وأعجمت الكتاب: ذهبت به إلى العجمة وقالوا: حروف المعجم... فإن قيل إن جميع الحروف ليس معجماً

إنما المعجم بعضها، ألا ترى أن الألف والحاء والدال ونحوها ليس معجماً فكيف استجازوا تسمية جميع هذه الحروف حروف المعجم. . . وسئل أبو العباس عن حروف المعجم: لم سميت معجماً؟ فقال: أما أبو عمر الشيباني فيقول أعجمت أبهمت. وقال: والعجمي مبهم الكلام لا يتبين كلامه. وأما الفرّاء فيقول هو مِن أعجمت الحروف، قال: ويقال قفل معجم وأمر معجم إذا اعتاص، قال: وسمعت أبا الهيثم يقول معجم الخط هو الذي أعجمه كاتبه بالنقط، تقول: أعجمت الكتاب تعجمه إعجاماً. وقال الليث: المعجم الحروف المقطعة، سميت معجماً لأنها أعجمية، قال: وإذا قلت كتاب معجم فإن تعجيمه تنقيطه لكي تستبين عجمته وتتضح. . . والعجم: النقط بالسواد مثل التاء عليه نقطتان. يقال: أعجمت الحرف، والتعجيم مثله. . . قال ابن جني: أعجمت الكتاب أزلت استعجامه. . . وكتاب معجم إذا أعجمه كاتبه بالنقط سمي معجماً لأن شكول النقط فيها عجمة لا بيان لها، فالحروف المعجمة لا بيان لها، وإن كانت أصولاً للكلام كله. . . واستعجم عليه الكلام: استبهم. والأعجم: الأخرس. . . ويقال: قرأ فلان فاستعجم عليه ما يقرأه إذا التبس عليه فلم يتهيأ له أن يمضي فيه. وصلاة النهار عجماء لإخفاء القراءة فيها. . . واستعجم الرجل: سكت. . . وكذلك استعجمت الدار عن جواب سائلها: قال امرؤ القيس:

صم صداها وعفا رسمها   واستعجمت عن منطق السائل

وأعجمت الكتاب خلاف قولك أعربته. وباب معجم أي مقفل».

(لسان العرب، ابن منظور، مادة ع.ج. م)

وزارة الداخلية

مديرية الأمن العامة

مديرية أمن بغداد

٤٣٦٧٥٨ج

م/ سري وعاجل

إلى من يهمه الأمر

تم العثور على المخطوطة المرفقة أدناه أثناء إجراء الجرد الشامل لكافة الملفات استعداداً للانتقال إلى المجمع الجديد. وبعد الإطلاع عليها اتضح أنها كتبت بدون نقاط. الرجاء تكليف أحد الرفاق بقراءتها وتنقيطها مع طبعها علىِ الآلة الطابعة، وتزويدنا بنسختين منها بموعد أقصاه نهاية الشهر الحالي.

مع الشكر سلفاً

التوقيع

اطلعت عليه بتاريخ ٢٤ آب ١٩٨٩. الرجاء تكليف الأخ طلال بالمهمة.

كنت أرقب غيمتين كانتا تتساحقان[1] بصمت في سماء بغداد. ثمّ هربتا غرباً، ربّما خجلاً، وتركتاني جالساً على مصطبة تحت النخلة الفرنسية (كنّا نسمّيها الفرنسية لأنّها كانت الوحيدة أمام قسم اللغة الفرنسية في كلية الآداب) حيث كنت أنتظر أريج ككلّ صباح. بحثت عمّا يستحقّ القراءة في جريدة الجمهورية. كانت هناك ترجمة جميلة لإحدى قصائد نيرودا[2] في الصفحة الثقافية تحاصرها[3] نصوص أخرى تعوي وتنهق للحزب والثورة. سعفات النخل تصفّق برفق فوق رأسي احتفالاً بقدوم نيسان. «شهر العطاء... مولد البعث والقاعد»[4] كما أصرّت إحدى اللافتات المعلّقة على جدار الكلية.

- صباح الخير.

لم يكن صوت أريج الحليبي الدافئ الذي كنت أتوق له،

---

(١) تتسابقان.

(٢) شاعر عالمي مشهور.

(٣) أو تجاورها.

(٤) القائد.

بل صوت أبي عمر، ضابط الأمن في قسم اللغة الإنكليزية الذي كنت أحد طلابه. كان يرتدي بنطلوناً رمادياً وقميصاً أبيض بياقة مفتوحة. وكان برفقته واحد آخر من فصيلته قصير القامة بوجه مستطيل وشارب كثّ. كان يرتدي بدلة سفاري زرقاء من التي كان يهوى موظفو الأمن والمخابرات ارتداءها بغضّ النظر عن المناسبة أو الموسم. «الرفيق صلاح» قال أبو عمر، معرِّفاً به بلهجته السامرائية التي كان يبالغ بها لتقريبها أكثر من لهجة تكريت. مدّ صلاح يده فتصافحنا. كان شارب أبي عمر المائل إلى الاحمرار يذكّرني دائماً بالصراصر التي كانت تستعمر بيتنا ليلاً، والتي انتصرت على كلّ حملات الكلوريدين التي كنّا نشنُّها بلا طائل. وكأغلب زملائه، لم يكن أبو عمر يبذل أيّ جهد لإخفاء الجهة التي يعمل معها ولها. كان عدم مواظبته على حضور الصفوف، إلا في المناسبات، وكونه في الثلاثينيات من عمره، علامة على أنّه ليس طالباً عادياً. في زمن الحرب كان على الطلاّب أن يلتحقوا بالجيش بعد التخرُّج مباشرةً. وباستثناء طلاب الدراسات العليا أو أولئك الذين كانوا يحصلون على إجازة من الوظيفة للحصول على شهادة جامعية، لم يكن يسمح لأي شخص بأن يقضي وقتاً طويلاً في الجامعة أو أن يحصل على أكثر من شهادة. أما أبو عمر فقد انتقل بقدرة قادر من السنة الثالثة في قسم اللُّغة العربية العام الماضي إلى طالب في قسم اللغة الإنكليزية هذا العام!

- الرفيق صلاح يريد يِسْأَلَك چَمْ سؤال.

ارتبكت قليلاً وأجبت من دون وعي:

- طَبْعاً.

سألني صلاح وهو يرسم ابتسامة خبيثة:

- مُمْكِن تِتْفَضَّل وِيّانا؟

- وين؟

- عالدائرة. بَسْ نُص ساعَة تلَتّرباع السّاعة.

كانت هذه هي اللحظة التي فكّرت كثيراً باحتمال وقوعها، لكن من دون قدر كاف من الحذر لتفاديها. أخذ أبو عمر كتبي التي كانت تجثم على المصطبة بجانبي وناولني إيّاها. لم أطرح المزيد من الأسئلة. سرنا سوية نحو البوّابة الرئيسية. كنت دائماً أشكو من طول المسافة بينها وبين قاعات الدروس والساحة، لكنّها بدت شديدة القصر ذلك الصباح. كنت أحبّ أن أصل مبكِّراً لأتفادى الزحام. لم يكن الكثير من الطلبة قد وصلوا بعد. بحثت عن وجه يعرفني، ربّما كي يسجّل غيابي. فكّرت بأريج وتحذيرها المستمرّ لي وجدتي وصلواتها ودعائها والشموع التي توقدها في الكنيسة كلّ يوم من أجل سلامتي.

عبرنا الباحة التي تفصل بين قسم اللغة الإنكليزية وقسمي الجغرافيا والتاريخ. مررنا بغرفة العميد ومكتب الاتحاد الوطني للطلبة ثمّ استدرنا إلى اليسار باتّجاه الشارع. أبصرت، من خلال البوّابة الحديدية، سيّارة ميتسوبيشي بزجاج مظلّل تقف أمام باب

الكلية تحت الجدارية التي وضعت قبل سنة بعد أن تسلّم القاعد[٥] الملهم شهادة دكتوراه فخرية في العقوق.[٦] كان يرتدي بزّة التخرُّج ويحمل الشهادة بيده. «للقلم والبندقية فوهة واحدة».

لكي لا أصاب بالجنون إزاء الأغاني والشعارات والقصائد التي كانت وزارة السخافة والإيهام[٧] تقصفنا بها يومياً، كنت أتلاعب بترتيب الكلمات والصور وأبعبصها على هواي وبما يتلاءم مع مزاجي. بدأت بالأغاني السياسية وبلمسات بسيطة هنا وهناك كانت تصبح أكثر واقعية. فكنت أردِّد: «بيت بيت ناج الشعب، بيت بيت بيت، ولا بَيِّن بوجهه التعب، بيت بيت بيت»[٨] وباسم الشعب والأمة كنت أوجِّه فوهة قلمي اللامرئيّ وأعيد الأمور إلى نصابها... «وجهك وجه العير، شوفه شلون مْنوِّر».

عندما أصبحنا أمام السيّارة، خرج من جهة السائق رجل فتح البابين الخلفيين. أشار إليَّ صلاح بأن أركب. رمقت أبا عمر بنظرة حاقدة. بدا واضحاً أنّه لن يأتي معنا. دخلت السيّارة من الجهة اليمنى وجلست. أغلق صلاح الباب ودار وجلس

---

(٥) القائد.
(٦) الحقوق.
(٧) الثقافة والإعلام.
(٨) «زار» في الأغنية الأصليّة وهي للمطرب حسين نعمة. «وجه الخير».

بجانبي بعد أن صافح أبا عمر وقبّله مودّعاً. كان الرجل الذي فتح الأبواب قد عاد إلى مقعد السائق وجلس بجانبه رجل آخر يرتدي نظارات شمسية. تركت السيّارة مدخل الكلية واتّجهت صوب الوزيرية. مررنا بالمكتبة التي كنت أشتري منها بعض الكتب أحياناً، ثمّ اتّجهنا يميناً نحو طريق محمد القاسم (الطريق السريع) ومنه جنوباً باتّجاه ملعب الشعب.

كان المذيع يقرأ أخبار الصباح. سقطت قطرة عرق من جبيني على عدسة نظارتي اليمنى مستهزئة بمحاولتي لأن أبدو صخرياً. كانت أوّل مرّة أشعر فيها بالذعر الحقيقيّ وأفكّر بالموت منذ الأيّام الأولى للحرب حين قصفت الطائرات الإيرانية بغداد قبل أن تسقط بالعشرات في أوّل أسبوع. كان طريق محمد القاسم يمرّ فوق مقبرة قديمة قيل إنّ فيها قبر السيِّدة زبيدة، زوجة هارون الرشيد، أو ربّما زبيدة أخرى من عصر متأخِّر، وقبر ناظم الغزالي. تداخلت صور الممثِّلة السورية التي لعبت دور زبيدة في مسلسل هارون الرشيد وصوت ناظم الغزالي وهو ينوح «هَذولَه المَرْمروني هَذولَه الْعَذِّبوني وعلى جِسْر الْمسَيَّبْ سَيِّبوني». ترى ماذا أعدُّوا لي؟ كان سرمد على حقّ! هل كتب أحدهم تقريراً عنِّي؟ ربّما سجَّلوا لي شيئاً؟ واحدة من النكات التي أردِّدها أو صوتي وأنا أقلِّد لهجته؟ صدقت جدتي.

- لَتِحْكي بَرّا يا إِبني. إذا رِحِت شَسوّي أنا؟ غير أموت من القَهَر. لَتْطَوِّل لسينك بعدين يقُصّونو. هَذولي مَيْخافون من اللَّه.

قاطع صلاح صوتها مجيباً عن تساؤلاتي بنبرة ساخرة كأنّه يعرف ما يدور ببالي:

- إِحْنَا مُعْجَبين بآرائك وأَفْكارَك ونْريد نِسْمَع مِنَّكْ.

ثم نظر إلى المقبرة التي كانت تبتعد وراءنا وأضاف: وروح النُكْتَة اللّي عندك!

- شِنو قَصْدَك؟

تظاهرت بأنّي لا أعرف ما يرمي إليه.

- تِدْري كُلّش زين شِنو قَصْدي. إِحنا هَم نُعْرُفْ هواية تَرة!

وابتسم بخبث.

تركت السيّارة الطريق السريع متَّجهة نحو شارع النضال. أيقنت أنّنا كنّا نتَّجه نحو «الأمن العامة». تزايدت قطرات العرق على جبيني وصار قلبي قبيلة من الطبول التي تطارد بعضها بعضاً. كانت السيّارة تقطع الشوارع الفرعية في المنطقة السكنية المحيطة بمجمع الأمن. مررنا بطفلة تركب دراجة في إحدى التقاطعات بالقرب من مقرّ الفرقة السمفونية الوطنية. وتذكّرت كم كنت أتندَّر بأنّ السمفونية الوطنية كانت، في مصادفة هارمونية، جارة لمديرية الأمن العامة. هنا أيضاً يقع نادي التعارف الخاص بالصابئة. كنت أحياناً أذهب مع أحد الأصدقاء من الصُبّة لنشرب البيرة ونأكل اللبلبي في حدائق النادي. أبطأ السائق ليسمح للطفلة بإكمال دورتها. كانت أمّها تصرخ بها من أمام البيت وتشير بيديها. أشار صلاح للسائق بأن يدخل من

البوّابة رقم ٣. وصلنا بعد دقيقتين إلى طريق مسدود. وقفت السيّارة أمام بوّابة كبيرة يحرسها ثلاثة من المسلّحين. حين أبصروها قام أحدهم بإزالة الحاجز الحديديّ المسنَّن الذي يشبه فك حوت كبير، والذي كان يوضع أمام المباني الحكومية ليمنع مرور السيّارات المفخَّخة ويثقب عجلاتها. قام آخر بفتح البوّابة. عندما بدأت السيّارة تتحرَّك ثانية تبادل السائق والحراس التحية. بعد أن عبرنا البوّابة طلب صلاح من السائق أن يقف ويفتح الصندوق. كان الشارع يمتدّ أمامنا لكنّ المنطقة كلّها مسوَّرة بسور عال من جهة اليسار. نزل صلاح من السيّارة وسمعت صوت الصندوق يُقفل. عاد وبيده قطعة قماش بيضاء. بعد ثوان مدّ صلاح يديه ليعصب عينيّ. حاولت منعه فأنزل يدي بعنف، وقال بعصبية:

- إذا تِتْحَرَّك واللّه أَكْسر سْنونَك بالأَخْمَص... اِفْتِهَمِتْ؟!

سمعت صرير البوّابة وهي تغلق وراءنا وكان آخر ما رأيته وجه القاعد[٩] وهو يحدِّق فيَّ من ساعة صلاح اليسرية قبل أن يعصبني. قاومت ثانية فجاءتني ضربة قوية على مؤخِّرة رأسي. لا أذكر ما حدث بعدها.

عدت إلى البيت لأجد جدّتي جالسة وصينية الشاي أمامها كالعادة، لكنَّها كانت تبكي بحرقة. سألتها مستفسراً:

---

(٩) القائد.

- شبيكي؟

- تعال وشوف. طلع هسّه ناطق من وزارة الداخلية وقال «على المواطنين التبرُّع بأعينهم دعماً للمجهود الحربيّ»، وقال همّينه إنّو المدارس رَخيسَوُّوها مراكز يجمعون بِيها عيون الناس والكِلّ لازم يروحون يوقَفون سِرَه... هسّه ذهب إفتهمنا وانطينا... فلوس، هم قِلْنَا مَيْخالِف، بَسْ عيون الناس؟ هاي شيسَمَوَّها يعني؟ بالعمر وبالزمان! اللّه ياخِذِهم كلتّم! هذا شلون زمان أسود!

ظننت أنّ الخرف والخوف كانا قد تسلّلا إلى رأسها وأخذا يعبثان به. لكن المذيع ظهر على الشاشة ليكرِّر تصريح الناطق العسكريّ:

- يا جماهير شعبنا العظيم. لقد رويتم تراب الوطن بدمائكم الزكية وأنتم تسطِّرون أروع الملاحم في معركتنا الخالدة ضدّ العدو الحاقد. لم تبخلوا أبداً بالنفس ولا بالنفيس. وتسارعت الماجدات يتبرَّعن بالذهب لدعم اقتصادنا في ساعات العوز.. وها هو الوطن الحبيب يهيب بكم أن تظهروا للأعداء والخونة بطولتكم الأسطورية وتفانيكم اللامحدود و...

هه! كيف نسيت أنّنا نعيش في احتفال عبث دائمي منذ عقود يشرف عليه حزب العبث[١٠] نفسه! وأنّ كلّ شيء ممكن!

---

(١٠) البعث.

تهالكت على الكنبة بجانب جدّتي لأجد أنّ عناوين الجرائد اليومية التي كانت تشتريها لي كانت هي الأخرى بلا نقاط، وأنّ صور الناس الذين كانوا على صفحاتها بدون عيون. قلبت كلّ الصفحات. أصابني رعب وخرجت أعدو في الشارع متجاهلاً صياح جدّتي التي ركضت ورائي إلى الباب وتحذيرها لي بأن أظلّ في البيت وألاّ أتركها لوحدها.

كانت كلّ العلامات والإعلانات وحتّى لوحات السيّارات بلا نقاط. رأيت طوابير الناس تتشكَّل أمام مدرسة الطليعة الابتدائية القريبة من بيتنا، والتي تحوَّلت في بحر دقائق إلى مركز للتبرُّع بالعيون. ومما زاد في غضبي أنّ الكلّ كان يضحك ويهلِّل وكان بعضهم يغنِّي: «كُل شي إيدِك لِمْسِتَه، عيون أهَلْنا باسِتَه! يوم الْجيتْنا... يا رَيِّسْنا لْبيتْنا». تصاعدت أصوات الضحك والزغاريد، وأخذ أناس لا أعرفهم يسحبونني إلى الطابور. كان أحد الرفاق الذين يرتدون الملابس الخاكية يمرّ على الواقفين في الطابور ويسجِّل أعمارهم وألوان عيونهم. شاهدت علي، صديقي من أيّام المدرسة الثانوية، واقفاً قرب نهاية الطابور. لكنَّه كان عابس الوجه لا يشترك في الغناء الجماعيّ ولا يصفِّق مثل الآخرين. أردت أن أسأله عمَّا يحدث. صرخت به مردِّداً اسمه مرّات عديدة لكنّه لم يسمعني. كانت أصوات الزغاريد والتصفيق والضحكات والهتافات تتصاعد بلا هوادة.

واستيقظت لأجد نفسي هنا(ك). تستلقي الأوراق أمامي

مبعثرة. آه يا علي! أين أنت الآن؟ هل زرتني في كابوسي لتشجّعني على أن أكتب مثلما كنت أنت تكتب؟ كنت تعطيني خواطرك لأقرأها وكنت أجد صعوبة في فكّ طلاسمها لخلوّها من النقاط. أكتب أم لا أكتب؟ «اكتبوا بلا تخوُّف ولا تردُّد أو تقيّد لاحتمالات أن تكون الدولة راضية أو غير راضية عمَّا تكتبون».[11] ما الذي يمكن أن يحدث؟ سيظنون أنّي جننت. وحتّى لو وجدوا وريقاتي فلن يتمكّنوا من فهم خطي السنسكريتي الذي كان يشكو منه أستاذ اللغة العربية في المتوسطة ويسمِّيني «أبو الجنّيب».

سأنتظر.

كنت أجلس على مصطبتي المفضّلة تحت النخلة الفرنسية أقرأ الجريدة، حين اقترب منّي بخطوات متردِّدة وسيكارته في يده.

- تِسْمَح لي بْفَد حچايَة؟

- إِي، تفَضَّل... خير؟

كنت أعرف أنَّ اسمه سرمد. وكان في شعبة أخرى في المرحلة نفسها. كنّا قد اشتركنا ذات مرّة في استئجار تاكسي للذهاب إلى مباراة كرة قدم. كان من مشجّعي نادي الطيران وجلسنا سوية أثناء المباراة وشاكسنا بعضنا بعضاً حول الزوراء

---

(١١) مقولة الأب القائد (حفظه الله ورعاه).

والطيران، وأخذنا بعدها نتبادل السلام. لكن لم نكن أصدقاء. تكلّم بصوت خفيض:

- أَذري إِحْنَا مَنُعْرُف بَعَضْ كُلِّشْ زين، بَس اِحْسِبْني مِثِل أخوك. بَسْ اريد أكُلّك حچاية وِحْدَة. دير بالك عَلى نَفْسَك تَرَه الجماعة ناويها عليك! يَگلون يطَوّلِ لسانه وشايف نفسه. تَرَه مِتْحَلْفيلك وحادّين سنونْهُم، فَدير بالك!

تظاهرت بالجهل التام وسألته عن أيّ جماعة يتكلّم، مع أنّي كنت أحياناً أراه مع «الرفيق» أياد من الاتّحاد الوطنيّ. أضاف بسرعة:

- آني سَوّيت اللي عَلَيَّ وأَرْجوك بَسْ خَلّي هالحَچي بيناتْنَا.

- وإِنْتَه شِنو مَصْلَحْتَك اِتْگُلّي؟

- اللّه يسامْحَك! تَرَه بَعَدْهَا الدِنْيا بخير وبَعَدْ أكو ضَمير.

- موقَصْدي... بَس الموضوع غريب شوَيَّة.

- يا أخي حَسَنَة لوجه اللّه. يَلّله مِنْ رُخُصْتَك.

أيقظني سرمد من تهوُّري وقرَّرت يومها أن أكون أكثر حذراً. فما الذي سيحقّقه ضياعي في غياهبهم؟ وتساءلت إذا ما كان هو نفسه واحداً منهم أو أنّ مبادرته كانت تحذيراً.(١٢) عدت يومها إلى البيت وقطعت عهداً على نفسي بأن أكون أكثر

---

(١٢) تحذيراً؟

حذراً. حين أخبرت جدّتي بما جرى انفجرت غضباً وخوفاً وضاعفت من تعاويذها وتحذيرها لي.

- موقِلْتولَك دير بالَك يا إِبني. أولاد الحرام كثيرين ومَيْخافون من الله. إِنْتَه شَغْليك بالحكومة وشِلَك دَخَلْ بيها؟ إِسْتِر عَلينا. تَرَه إذا صار بيك شي أَنَا أوقَع وأموت. مَيْكَفّي راحو إِمَّك وأبوك تريد إِنْتَ هَمْ تروح وتْخَلّيني. إي هذا لْسينَك يقُصّونو. وِشراحِتْحَصّل مَتِقِلّي؟ الله يخَلّيك والعَذْرا تِحْرِسَك. كِلْ يوم أَشْعِلَّك شموع بالكنيسة علمود تِعْقَلْ.

- لَتْخافين بيبي، مَيْصير شي.

- شلون ما أَخاف يا إِبْني. مَتِتْذَكَّر هذا الجيهِلْ اللي حَكَى نُكْتَة بالحضانة كان كِنْ سَمَعها بالبيت والمُدرِّسة راحِت وقَلْتْلِم وحَبَسو أهلو؟ هاي بالحَضانة هِكّي وإِنْتم بالجامعة! ليش تْظَل تِنْتِقِذْ يا إِبْني؟ أَشو شْسَوّولَك؟ شنو كِرّايِتَكْ وِيّاهِم؟ عَسْكَرِيّة ومَلازِم تِخْدِم. حالك أحسن من حال هَلّي قَيْموتون بهذا الحرب! (لم تكن جدتي على وعي بالحركة النسوية لكنّها كانت تصرّ، لسبب أجهله، على تذكير الحرب!)

ذكَّرتها بأنّي معفيٌّ من الخدمة العسكرية لأنّي أشكو من ضعف في أطرافي اليسرى، وهذه ليست منّة من الحكومة بل بسبب سرطان غير خبيث استئصل من الجانب الأيمن من دماغي عندما كنت طفلاً. لكنّها ظلّت توبّخني. ووعدتها بصدق بأن أكون أكثر حذراً ووعدت نفسي بأن أحاول.

استيقظت لأجد نفسي هنا(ك).

تموز في بغداد سادي القسوة. أشعة الشمس سياط تلهب ظهور الناس وتخترق مساماتهم لتعبث بكلّ خلية من خلاياهم وحتّى بتفكيرهم وأمزجتهم. ألهذا تختار «الثورات» تموز لتطلع علينا بمنجزاتها. ربّاه كيف تعوَّدنا أن نسمِّيها ثورات لكثرة ما ردَّدنا ذلك، ونسينا أنَّها فورات أو عورات تظهر على تاريخنا. يصاب مجموعة من الساديِّين بضربة شمس ويعلنون أنفسهم مخلّصين. يأخذون بتعذيب الشعب وامتطائه كدابة لأطول فترة ممكنة لأنَّهم يكتشفون أنّ ذلك أسهل بكثير، وربّما ألذّ، من تحقيق وعودهم وشعاراتهم. ثمَّ تأتي مجموعة أخرى تطيح بالمجموعة الأولى وتجيء معها بأسواط أطول، من طراز جديد وصناعة مختلفة، وبشعارات أكثر رطانة وقيود مصنوعة من معدن أرخص، وهكذا. حلقة سادية تخنقنا إلى الأبد. سيفنّد أيّ عالم أو محلِّل سياسيّ هذه النظرية بسهولة. لكنَّها، بالنسبة لي على الأقلّ، تلائم هذا الحرّ والبؤس!

أن تعيش هنا يعني أن تمضي[١٣] ثلاثة أرباع عمرك في الانتظار. انتظار أشياء نادراً ما تجيء: غودو، الثورة، الباص، الحبيبة... إلخ. ويستغرق الانتظار وقتاً طويلاً لأنّ الوقت، نفسه، مواطن مشرَّد ومعتوه يتعثَّر بخوف ويسقط على الأرصفة

(١٣) أو «تقضي»

ليبصق ويتبوّل عليه التاريخ بدون رحمة. شعرت بنسمة رطبة حين تذكّرت أن فلاح كان في طريقه إليّ بلا شك. وإلاّ فإنّ كونه مصاباً بداء السكري لن يكون سبباً كافياً لإعفائه من الخدمة العسكرية. كنّا رفاق المرض والهوس بكرة القدم وبنادي الزوراء، وكانت تجمعنا اهتمامات ثقافية أيضاً. كان هو رساماً بارعاً لكن أعماله كانت تشكو من مشكلة تقنية لم ينجح في التخلُّص منها، ولذلك لم ينجح في إقامة معرض شخصيّ على الرغم من محاولات عديدة وشهادات الكثيرين بموهبته. لم يكن فلاح يوافق على وضع صورة القاعد في صدر معرضه وهي عادة أو تقليد لا مفرّ منه لأيّ فنّان جديد. فحتّى الكبار الذين اشتهروا من قبل وتخلَّصوا من عبء هذا التقليد، كان عليهم، بين الحين والآخر، أن يعبِّروا عن تقديرهم للدعم اللامحدود الذي يحظى به الفنّ والفنّانون من لدن القاعد على صفحات الجرائد، أو على شاشة التلفزيون في المناسبات الرسمية.

كان هذا يومنا الثالث أمام مبنى «اللجنة الخاصة» أو «الجنة شرحبيل بن حسنة التابعة لوزارة الدفاع» كما سمِّيت رسمياً. كان القاعد[14] العام نفسه قد اختار أعضاء اللجنة من خبراء وأطباء عسكريِّين وضبّاط مقرّبين منه لإعادة فحص كلّ من تمّ استثناؤه

---

(١٤) القائد.

من الخدمة العسكرية قبل أو أثناء الحرب. وقيل إنّه أمر بتصوير كافة المعفيّين بسبب السمنة المفرطة بالڤيديو ليقرّر هو شخصياً بعد مشاهدة الفيلم إذا كانوا يستحقّون الإعفاء أم أنَّهم قادرون على خدمة العلم. لن تكون هناك واسطات هذه المرّة ولا تلاعب يسمح للكثير بأن يوضعوا في خانة الأسباب الصحية رغم أنّهم كانوا أكثر صحة من خيول السبق! قيل الكثير عن صرامة وعدالة هذه اللجنة الجديدة، لكنّي لم أمن أصدِّق أنّ أقرباء المسؤولين سيحاربون على الجبهة كالآخرين، حتّى لو قرّرت اللجنة أنّهم يصلحون للخدمة العسكرية المسلحة، فإنّهم حتماً سيوضعون في وحدة إدارية في بغداد أو في مدنهم، وسيكون أقصى واجباتهم الحضور مرّة في الشهر لكي لا يحرجوا الضابط المسؤول.

كنّا قد جئنا في اليومين الأوّلين وانتظرنا ساعات طوالاً لنكافأ في النهاية بالعبارة الأكثر شعبية وتداولاً في المعاملات الحكومية: تعال باچر!

وذكرني الموقف بكاريكاتير رائع كنت قد قصصته من مجلة «ألف باء» وعلّقته على واحد من جدران غرفتي وعلى ذاكرتي أيضاً. يجلس موظّف حكومي خلف مكتبه كإمبراطور ويقف أمامه مواطن يلهث ويتصبّب عرقاً من تعب يوم قضاه في ماراثون استحصال التواقيع والدمغات. ويطلب المواطن المسكين من الموظف توقيعاً أخيراً كي ينهي معاملته ويعود إلى بيته. لكنّ

الموظف يردّ عليه ببرود: تعال باچر. . . حتّى أگُلك: تعال باچر!

احتميت من ظلم الشمس التي كانت قد تحالفت مع الوضع بظلّ نخلة شامخة كانت تقف عبر الشارع على الجهة المقابلة للمبنى. لماذا اختارت وزارة الدفاع، يا ترى، هذه المنطقة السكنية موقعاً للمبنى؟ لا بدّ أنّ لديها سبباً منطقياً يعجز البسطاء من أمثالنا عن فهمه أو اكتشافه. كان المنظر بحقّ مثيراً للكآبة. مجموعات الرجال تتوافد على المبنى، البعض يتوكّأ على عصاه والبعض الآخر على ابن أو أخ أو زوجة. كان الكثير منهم يحمل مظروفات أو ما بدا أنّه أشعة طبّية بالرغم ممّا قيل لنا عن عدم إحضار أيّ وثائق أو تقارير، لأنّ اللجنة لن تعترف بأيّ تقارير سابقة أو خارجية وستعتمد على فحصها فقط. كان الباعة قد انتهزوا الفرصة وانتشروا يبيعون الساندويتشات والمرطبات للمراجعين ولمن معهم. بعد دقائق من تقرفصي تحت النخلة لوّح فلاح من الجانب الآخر. كان قد قال إنّ الموعد سيكون «توقيت إنگليزي». ودّعت النخلة الحنونة وعبرت الشارع نحوه.

- شلونك؟

- زين. إنْت شلونك؟

- زين.

نظر عبر السياج إلى مجموعة من الرجال كانوا قد بدأوا بالتجمّع أمام مدخل جانبي.

- شِتْگول... رَخيصيحون أسامينَا اليوم لولا؟
- خلّي نْشوف. آني زِهَگِت وبَسْ أريد أخْلَص مْنِ القصة!

دخلنا واتّجهنا يميناً حيث كان هناك جنديّ يستعد لقراءة الأسماء. كان هناك ما يقرب من خمسين رجلاً ينتظرون. لم تكن هناك مصاطب أو كراس بالرغم من كون معظمنا من «المعاقين» والمرضى. ربما كان إبقاؤنا واقفين تحت الشمس الحارقة لأمد غير معروف علاجاً من نوع جديد استحدثته وزارة الدفاع؟ واقترح فلاح أن نتقرفص ونتّكئ على جدار المبنى ففعلنا ذلك.

كان الجندي يقف أعلى سلّم كونكريتي قصير يؤدّي إلى مدخل البناية الجانبي. توالت الأسماء برتابة مملّة. كان على الذين يسمعون أسماءهم أن يقولوا: «نعم» «هنا» «بلي» «حاضر» أو أي شيء يثبّت وجودهم في تلك اللّحظة. عثر فلاح على حجر صغير وراح يرسم شيئاً ما على التراب بين قدميه. اقترب منّي رجل بدا في الأربعينيات من عمره يرتدي أسمك نظارات رأيتها في حياتي، چَعْبِ گلاصْ، كما كنّا نسمّيها. وسألني عن الوقت. كانت الساعة قد قاربت التاسعة.

- الساعة أداة لقياس الوقت الضائع!

ردَّدت العبارة بصوت خافت لفلاح كأنّي اكتشفت حقيقة مهمة للجنس البشريّ. فقال مبتسماً:

- حلو... خوش بداية لْنَص!

وبمرور الوقت توالت الأسماء، وبدأ البعض يتجاذب أطراف الحديث، والبعض الآخر يطلب من الجنديّ أن يعيد قراءة اسم لم يتسنَّ سماعه بوضوح. وتصاعدت بلبلة لا بدّ أنّها خدشت أذن الجنديّ الموسيقية نشازاً فاقعاً فتوقَّف عن قراءة الأسماء، ونظر إلينا لعدّة ثوانٍ صامتة كانت كافية لإسكات الجميع. ثم بدأ محاضرة توبيخية بلهجة تكريتية ثقيلة:

«شوفوا يَوَلّون... تَرَه بِزْعَت روحي واللّه العظيم إنتو مو ويلادا اللي يسمع إسمو يگول «نعم» ويوگف بالسِّره. شنو فاتحين گهوة هينَا؟ لو حمام نسوان؟ ما أريد أسمع سوالف ولغاوي. افْتِهَمْتوا؟ راحأقرا الأسامي واللي يفتح ثِمّو واللّه العظيم هَسّاع آخذ الدفتر مالتو وأطْمَغو «سالِم مُسَلَّح» ويروح لمكتب التجنيد ويْسَوقوْ لَلْجَبْهة يحارب! وهذا الآمر مالي، الملازم عمر، ماعندو مانع يسَوّيْهَا حتى نِخْلَص منكم. واللّي يريد يشتكي خلّي يتفضل... إسمي حسن وروحوا وين ما تريدون ولأكبر واحد!»

ثم تنهّد وعاد إلى أوراقه يحاول أن يجد آخر اسم قرأه. نظرت إلى فلاح الذي ابتسم بسخرية وهزّ رأسه من دون أن يقول شيئاً. أما صاحب النظّارات السميكة فقد دمدم شيئاً لم أفهمه. كان الانزعاج والتململ واضحاً في العيون المتعبة. ولكن من سيجرؤ على أن يقول شيئاً؟

وقف فلاح حين سمع اسمه بعد دقائق، وسألني:

- تنتظرني؟

- إي، حتّى إذا ما أسمع إسمي رح أنتظرك گِدّام البناية برّا.

- زين. أشوفك بَعْدين لَعَدْ.

والتحق بالآخرين في صفّ طويل. قرأ الجنديّ أسماء ثلاثة آخرين قبل أن يتوقّف ويشرف على إدخال المجموعة إلى البناية. وبعد خمس دقائق خرج ثانية وبدأ يقرأ الأسماء من قائمة جديدة. كان اسمي على القائمة الثالثة. وقفت في الطابور ودخلنا إلى البناية حيث أمرنا الجنديّ أن نخلع كلّ ملابسنا باستثناء السروال الداخليّ، وأن ندخل غرفة الفحص بدون أن نتفوّه بأيّ شيء أو نتكلّم مع أعضاء لجنة الفحص إلاّ للإجابة على سؤال قد يوجّهونه. أوّل فحص لي كان أثناء استصدار دفتر الخدمة العسكرية عندما بلغت الثامنة عشرة من عمري، وكان أبسط بكثير من هذا وقام به طبيب واحد. قسّمنا الجنديّ إلى مجموعات من خمسة، وطلب منّا أن نجلس على المصاطب الموضوعة على جانب الممرّ الطويل المؤدّي إلى غرفة الفحص. كان هناك جنديان يقفان على جانبي الممرّ وثالث عند الباب المؤدّي إلى الغرفة. خلعت ملابسي وأمضيت حوالى عشر دقائق جالساً على المصطبة ومستمتعاً بتيار الهواء البارد القادم من نهاية الممرّ. أخذت أفكر باحتمالات استدعائي للخدمة العسكرية. وقبل أن أمارس قلقي سمعت اسمي ثانية.

مشيت نحو باب الغرفة وأمرني الجنديّ الواقف هناك أن أقف.
خرج من الغرفة شاب بعمري وأشار إليَّ الجنديّ بالدخول. كان هناك ثلاثة رجال يرتدون الصدريات البيضاء ويجلسون خلف طاولة واسعة. كان القاعد[١٥] يراقبهم من صورته باللباس العسكريّ على الجدار الأبيض، وكُتب تحتها بخطّ كوفي أنيق «عرق التدريب يقلّل من دماء المعركة».[١٦] ووقف رجل آخر في وسط الغرفة إلى اليسار؛ بدا أصغر من أعضاء اللجنة الذين كانوا في خمسينياتهم. وبعد أن قرأوا الأوراق التي كانت أمامهم، طلب منّي أحدهم أن أمدّ ذراعي وفعلت. كانت اليمنى قوية وعادية، لكنَّ اليسرى كانت تشكو من ضمور في العضلات والأعصاب فارتجفت وتدلّت أصابعي كزهرة ذابلة.

- إِمْشي شوَيَّة لِگدّام!

أمرني الجالس في الوسط ففعلت. كنت آمل أن يلاحظوا عَرَجي الخفيف والذي شربنا أنا وفلاح الكثير من الويسكي في الليلة الماضية لإضعاف الأعصاب ليتوضَّح بجلاء. بعد عدّة خطوات خطوتها باتّجاههم، قال الجالس في الوسط:

- يِكْفي. لوف وارْجَع وين ما چِنِتْ واگُف.

أخذوا يكتبون على الأوراق التي كانت أمامهم، وقال «الوسط»: اتفضل إبني!

---

(١٥) القائد.

(١٦) مقولة الأب القائد (حفظه الله ورعاه).

وسألت:

- والنّتيجة؟

- راح تِسْتِلِم دفترك من مركز التجنيد.

خرجت من الغرفة وارتديت ملابسي على عجل. أشار الجنديّ الواقف عند الباب إلى باب آخر للخروج في نهاية الممرّ. وتنفّست الصعداء لانتهاء الفحص مع أنّ ظنّي كان قد خاب لأنّنا لم نعرف النتيجة. كان فلاح بانتظاري في الخارج. كانوا قد سألوه عن إبر الأنسولين اليومية التي يزرق نفسه بها وطلبوا منه أن يريهم آثارها. وراجعنا مركز تجنيد الكرادة الشرقية أربع مرات في الشهر الذي أعقب الفحص قبل أن نحصل على النتيجة ذاتها: «غير صالح للخدمة العسكرية المسلَّحة وغير المسلَّحة». كانت اللجنة قد استحدثت خطاباً جديداً، كنّا قبلها «معفوين» أما الآن فقد تحوَّلنا إلى «غير صالحين». بضاعة كاسدة في زمن الحروب.

لم نشعر بفرح غامر، بل براحة هادئة، لأنّنا عرفنا أنّ موتنا سيؤجّل حتّى إشعار آخر أو لجنة أخرى أو حرب أخرى. احتفلنا يومها بالذهاب إلى مشربنا المفضّل في شارع السعدون «منصور منصور». كان المشرب بجوار مكتب الخطوط الجوية الإيرانية الذي هاجمه الناس في أوّل أيّام الحرب وأحرقوه وحوّلوه إلى مبولة للسكارى. شربنا عرقاً نخب العوق واستمعنا إلى أم كلثوم تغنّي «أنساك. . . ده كلام؟». كان يجلس بجانبنا

يومها رجل طالما رأيناه هناك. كان يجيء يومياً بانتظام، كما قال لنا النادل، بعد انتهاء الدوام في الثالثة بعد الظهر ويجلس في الزاوية وحيداً، ثمَّ يضع أمامه صورة ابنه المفقود في الحرب منذ أربع سنوات. وتبدأ قناني البيرة الخاوية بالتجمُّع على الطاولة أمامه وهو يهمس للصورة ويقدِّم البيرة لابنه أحياناً، أو يئنّ أنيناً مكتوماً وهو يردِّد اسمه: سلام... سلام... سلام!

عدت إلى البيت وكانت جدتي قد أعدَّت الشاي لنشربه سوية و«نسولف». وأخذت تقصّ عليّ أحداث اليوم كعادتها.

- لو تشوف الشهيد اللّي جابونو اليوم بالكنيسة خَطِيي بَعَدو جيهِل. كنَّينو قمر! أي لو تشوف صورِته. وييي! شْسَوَّا أبونو. انْجَن حَرام انْجَن. ظلّ يرقُص عالطَّبِل والزَّرْنة اللي جابُوها ويقول: ما مات ما مات. يبوس الصورة مالِتو ويقول: عرّيس إبني عريس! من حَرْقِة قلبو أكيد! خطِيّي مهندس ومتزوج وعندو ولاد ثْنين. تيَتّْمو هَسَّه. مرتو هَمْ كانِتْ ويقفة قَتْلُطْم على راسها وتعال وشوف هالبِكي والصريخ. بس أبونو سوّى سوايي. يرقص ويبكي مثل النِسْوين.

وسألتها مستغرباً هذا الطقس الجديد الذي لم أكن قد سمعت به:

- ليش مِن يا زمان قاموا يجيبون موسيقى عالكنيسة؟

- خومو جوّا بالكنيسة! برّا، بالحوش يَمّ الباب البَرّاني. لمَّن يجيبون شهيد، جماعة المنظمة، هذولي الحِزْبيين، يجيبون

طبل وزَرْنة. ليش إِنت تْعَتِّبْ عالكنيسة حتى تعرف شْقَيْصير؟
ليش تُعْرُفْ دَرْبها! لا دين ولا ديانة!

تجاهلت توبيخها كعادتي مطالباً بالمزيد من المعلومات:

- يا موسيقى كانوا قَيْدِقّون؟

- شْمُعْرُفْني. ها... أي... هاي مال «آنه امَّكْ».

«آنه أمَّك» گالت الگاع «وإِنْت وليدي»
عِرّيس ورَبْعَه يْزِفّونَه وعِرْسَكْ عيدي
گالت: مَنْذور لْهالليلة
خَيّال إِنْتَه وفوگ كْحيْلة
ما يِنْدگ بوْجودك بابي
يا چَرْغَدْ راسي وچِلاّبي
يا كِحْلَة عيني ومَيْ عيني
وحِنَّة إيدي عِرسَكْ عيدي

...

يُمَّه بْعِرسي يْغَنّي المَدْفَعْ طول الليل
يُمَّه البارود من أَشْتَمّه ريحة هيل»[١٧]

أقنعني خالد ذات مرّة بأن أحاول نشر بعض نصوصي في جريدة «الجمهورية». وعرض أن يأخذها بنفسه للمحرِّر الثقافيّ الذي كان على معرفة به وكان مكتب الجريدة قريباً من الجامعة.

---

(١٧) أغنية «عرس الگاع» لفرقة مطربي الريف.

لم أكن متحمّساً. فهم كانوا ينشرون لمن يكتب مثلهم أو يطبّل ويزمّر. لكنّه أصرّ ووافقت مع اقتناعي بالنتيجة. أعطيته نصاً حزيناً عن هلوسة أم تنتظر جثمان ابنها الوحيد الذي مات في الحرب. ورفض المحرّر الثقافيّ أن ينشره لأنّه لم يكن «تعبوياً» على حدّ قوله. قال إنّ أم الشهيد «يجب أن تكون سعيدة وأن تزغرد عندما تعود جثّة ابنها الشهيد». أَوَليس «الشهداء أكرم مِنّا جميعاً؟!»

أحفر في الصمت بحثاً عن صمت أعمق أهيله على نفسي. لكنّ الصراخ والأنين يهاجمانني من جديد. ألطّخ الجدران بهذياني وهلوستي علّ الصراخ يبتعد. لكنّه يزداد وضوحاً وتنضمّ إليه ضحكات ساخرة. أضحك أنا أيضاً ثمّ أبكي. رأيت باباً كبيراً أمامي يمتدّ من الأرض وحتّى السقف. مددت يدي لأفتحه فانفتح على مصراعيه! رأيت ممرّاً على جانبيه أشجار عالية وكثيفة أغصانها حروف تتدلّى إلى أسفل على مدّ البصر. وحالما دخلت وبدأت المشي في الممرّ هبَّت ريح عاصفة. سمعت همهمة تصدر من الأغصان. الحروف التي أخذت نقاطها تتساقط على الأرض كأوراق خريفية. وكان كلّ حرف يصدر صوته عندما يرتطم بالأرض. سقطت كلّ النقاط وظلّت الحروف. الأغصان جرداء. هدأت الريح وخيَّم الصمت لثوان. بدأ لون النقاط بعدها يتحوَّل من الأسود إلى الأخضر الغامق ثمّ الأخضر الفاتح. ثمّ بدأت النقاط الخضراء تتحرّك بصورة لولبية على أرض الممرّ وإذا

بها تتحوّل إلى جراد يطير ويدور ويقفز في كلّ مكان. ثمّ أخذ الجراد يقفز نحو الأغصان التي جاء منها ويقضمها بشراهة. تآكلت الأشجار بسرعة ولم يبق منها شيء. هبّت الريح العاصفة ثانية وأعادتني إلى مكاني بعد أن صفقت الباب الذي اختفى هو الآخر. لكنّ صوت الجراد ظلّ يغتال الصمت.

تحت شعر «الديمضراطية[١٨] مصدر قوّة للفرد والمجتمع»، أجريت انتخابات لاتّحادات الطلبة في كافّة الجامعات والمعاهد. وجاء أحد الرفاق إلى المحاضرة وطلب من الأستاذة، التي كانت يومها تتكلّم على مدارس النقد الأدبيّ الحديث، بأن تسمح لنا بالخروج للمشاركة في هذا الهرس[١٩] الديموقراطي والإدلاء بأصواتنا. لم تكن هناك حملات انتخابية أو لقاءات مع المرشحين، مثلاً، لعرض رؤيتهم لدور الاتّحاد أو التجديد الذي يعدون الناخبين به! كان الأمر لا يتعدّى جلوس المرشحين جميعاً ببلاهة على طاولة في الساحة الكبيرة وأمام كلّ واحد ورقة كتب عليها اسمه. كلّهم بعصيون[٢٠]، طبعاً، وأعضاء في الاتّحاد الوطنيّ للطلبة. لكنّ المهزلة كانت توفّر فرصة الخروج من المحاضرات المملّة. أذكر يومها أنّنا قرّرنا ألا ننتخب الشخص نفسه. كنت قد انتخبت «ميكي ماوس» في السنة

---

(١٨) الديمقراطية. مقولة الأب القائد (حفظه الله ورعاه).

(١٩) العرس.

(٢٠) بعثيّون.

الماضية. هم لا يقرأون هذه القصاصات الورقية أساساً. هذه السنة اخترت طالباً اسمه فلاح حسن وسألتني أنتِ يومها لماذا هذا بالذات. أخبرتكِ أنَّه سميّ لاعبي المفضّل ومدرِّب الزوراء العظيم الذي كانت صورته معلَّقة على جدار غرفتي. أما أنتِ فقد اخترت أكثرهم وسامة وشعرت بالغيرة منه، واكتشفتِ ذلك فابتسمتِ. وقلت لكِ يومها: لن يفوز!

أشعر بألم شديد في مؤخرة الرأس بفعل الضربة الحادّة التي تلقّيتها بعد مقاومتي. يفاقمه هو حين يشدّ شعري أو يدفع رأسي أحياناً نحو الأسفل بيده اليسرى فيمرّغ أنفي في القماش الرصاصيّ، الذي تستعمره رائحة نتنة تمزج بين العرق وبقع الدم والوسخ المتراكم. يزداد الألم في معصميّ ومفاصلي كلّما حاولت الفكاك من الحبال السلكية التي تحزّ جلدي. أحسّ بلزوجة أصابعه على خصري اليمين وهو يلجني بعنف. تنغرز أظافره النتنة في جلدي. أغمض عيني وأحاول أن أختفي من الوجود أو أن أهرب من جسدي وأتخلّى عنه إلى الأبد... آه، لو أنسلخ منه إلى شكل آخر. دون جدوى. لا أذكر وجهه. ربّما أحاول عمداً أن أتناساه. لكن لا يمكنني أبداً أن أنسى صوته. كان يوشوش في أذني وهو يجثم فوقي:

- مِضياگ... مِضياگ... يَوَل بعدَك سَرْمُهُر... لازم هاي أول مرة... شلون طيز يلوگ لهالعزيز... مَتْصَفَّگ... أبو الهَلِس... والله لخَلّي جُخْرَك يصَفِّگ يا فَرِخ!

كانت يداي تربطان أو تشنقان في وضع التصفيق الدائمي! أنفاسه الحارّة ولهاثه يحرقان رقبتي ويضاعفان من غثياني. كان يكثر الكلام والضحك في البداية لكنّه، شيئاً فشيئاً، يستبدلهما باللهاث الخافت وهو يقترب من ذروة لذّته التي كان يدلقها فيّ. ثمّ أسمع صوت السّحّاب عندما يغلق فتحة البنطلون وبعد ذلك الحزام. ثمّ صفعة الشكر والمداعبة على إليتي بعد الانتهاء وكلمة «تِسْلَم» التي تنهي طقسه السادي. أشياء كثيرة صغيرة تتهشم في دواخلي في كلّ مرّة. أشياء لا يمكن لي أن أسمّيها أو أحدِّد أشكالها. لكن نثارها ما زال يجرح صميمي ولا اخاله سيرحل عنّي في يوم من الأيّام. عندما توقّفت عن الأنين المسموع في المرّات التي تلتها واحتفظت به لكي يتردّد في أعماقي، كان يقول: ها أشو ما دَتْنَغْوُص، تْعَوَّدِتْ لو عِجَبَكْ الوَضِع؟

كان يسمّي نفسه «أبو خالد» تيمّناً بسعدي الحلّي.[٢١] عرفت هذا من زميله الذي كان يساعده في ربطي ويخرج ثمّ يناديه ويسأله إذا كان قد انتهى منّي! وكان يشكره حينما يعزمه عليّ «تعال خُذْلَكْ قاط»! قال لي ذات مرّة: تريد أحْچيلك آخر نكتة على أبو خالد. وكان يرويها ويضحك دون أن ينتظر موافقتي!

---

(٢١) المطرب الشعبي المعروف باللواط.

ربّما انتصروا فعلاً بكلّ ما كتبوه عنوة على جدران الذاكرة واللاوعي، في الداخل والخارج، من شعارات تفوح منها رائحة البول وكلّ النفايات التي تجثم في دهاليز رأسي وجسدي وشوارعهما. كيف يمكن لي أن أطردها كلّها من دون أن أموت أو أصاب بالجنون الكامل؟ تردّدني الأغاني وتكرّرني لآلئ القاعد. تقتحم أذني وعيوني وتخرج من استي، لكنّها تعود ثانية لتغزو فمي فألوكها مجبراً وهي تستهزئ بي.

سمعنا في الصباح عن احتمال خروج مسيرة لمبايعة القاعد.[٢٢] كان العدوّ قد طالب بإجراء استفتاء في البلدين لإظهار مدى شعبية القاعدين، واقترح أن يتنحّى من ليس لديه ما يكفي من شعبية! واستنفر الحزب تنظيماته لتخرج الجماهير «عن بكرة أبيها» وتعبّر عن حبّها للقيادة. وفعلاً جاء الرفاق بعد نصف ساعة من بدء الدرس الأول وطلبوا منّا التجمُّع في الساحة الرئيسية لنستمع إلى كلمة المدير قبل الخروج إلى الشارع. حذّرونا من أنّ الذي يهرب من المسيرة سيفصل من المدرسة ويتعرّض لأقسى العقوبات. كنّا أيّامها نرى في المظاهرات فرصة للتحرُّر من قاعة الدرس والاختلاط بطالبات المدارس اللواتي كنّا نتحرّق للتقرُّب منهنَّ ومحاولة التعرُّف عليهنَّ أو الكلام معهنَّ. خرجت الصفوف إلى الساحة الرئيسية

---

(٢٢) القائد.

واصطفّت بالتسلسل، كالعادة، من الأول إلى السادس الثانويّ على شكل مربّع في قلبه سارية تحمل العلم الشامخ. وقف مرشد كلّ شعبة أمام الصف وكان المدير ومعاونوه وأعضاء الاتّحاد الوطنيّ يقفون تحت بناية الإدارة التي كانت تطلّ على الساحة. ألقى مدير المدرسة، الأستاذ قتيبة، كلمة حماسية حثّنا فيها على الوفاء بعهدنا للقيادة التاريخية التي كنّا جندها وطليعتها. وقال إنّ هتافنا يجب أن يهزّ العالم بأجمعه. ثمّ طلب منّا أن نردّد معه: نعم نعم للقائد. . . نعم نعم للقائد. فردّدنا لخمس دقائق ثمّ صفقنا. تقدّم رئيس اتّحاد الطلبة أمام الميكرفون وألقى كلمة قصيرة أكّد فيها بأنّنا جيل الثورة ورأس حربتها وجدّد العهد والولاء. تبعه أحد الطلاب النوابغ بقصيدة عنوانها «عهد الدم»، نذرنا فيها مشاريع استشهاد للوطن والقاعد.[٢٣] ثمّ أذن لنا المدير بالخروج صفوفاً منتظمة للالتحاق بجماهير الشعب. بدأنا بالخروج حاملين الأعلام واللافتات التي وزّعها الرفاق أعضاء الاتّحاد. ووصلنا إلى شارع الأعظمية الرئيسيّ وبدأنا بالتوجُّه نحو باب المعظم، حيث كان من المنتظر أن تلتقي كلّ المسيرات. كانت الشوارع الفرعية محروسة من قبل الرفاق الذين اكنوا يمنعون أي طالب من التسرُّب. لم يكن الهروب مجدياً في مسيرات كهذه أساساً.

---

(٢٣) القائد.

فمن الصعب، بل من المستحيل، العثور على باصات أو سيّارات أجرة لأنّ كلّ الطرق، أو الرئيسية منها على الأقلّ والمحيطة بمناطق التجمُّع الرئيسية، كانت تغلق وتمنع السيّارات من المرور بها. كما أنّ من المستحيل في أوقات كهذه أن يعثر المرء على سيّارة أجرة. كنّا أحياناً نعود مشياً إلى البيت في أيّام المظاهرات الكبيرة التي يتعطّل فيها جزء كبير من المدينة. مرّت أكثر من ساعة ونحن نسير باتّجاه باب المعظم. كان الرفاق أحياناً يحثّوننا على الهتاف بحماسة، لكنّ الهتافات كانت تخف وتموت بعد دقائق، خصوصاً عندما يبتعد الرفيق ليحث مجاميع أخرى على مواصلة الهتاف. كان المنظّمون قد حرصوا هذه المرّة قدر الإمكان على عدم دمج مدارس الفتيان بمدارس البنات. لكن عند اقترابنا من باب المعظم بدأ بعض الفلتان يسري في الصفوف وتداخلت الأمواج البشرية بعضها مع بعض. تخلّصنا من رقابة الرفاق من مدرستنا وتقدّم بعضنا الصفوف بحثاً عن البنات. اندمجنا بمدرسة ذات الصواري القريبة من مدرستنا والتي فيها الكثير من الجميلات. كانت هناك الآلاف من الرؤوس ترتفع على مدّ البصر وفوقها رايات وصور القاعد وعبارات معدودة متشابهة كتب تحتها اسم المدرسة أو الفرقة أو الفرع. كان مشروع توسيع بناية مدينة الطب جارياً على قدم وساق في الجزء الشماليّ من باب المعظم، وساهمت الشركة الأجنبية المشرفة على المشروع أو ربما المقاول أو

المهندس المقيم في مظاهرتنا أيضاً، فقامت الرافعة برفع صورة القاعد[٢٤] إلى ارتفاع شاهق ودارت بها من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ببطء شديد كأنّها وثن ما وتصاعد التصفيق والهتاف. نعم نعم للقائد... نعم نعم للقائد. لفتت انتباهي بقوامها الممشوق. كانت ترتدي تنّورة زرقاء قصيرة ترتفع فوق الركبتين بقليل وقميصاً أبيض على شيء من الشفافية يبرز من خلاله نهداها الكمثريّان وقد اعتقلتهما حمّالة سوداء. كانت في حوالى السادسة عشرة من عمرها. سمراء بعينين عسليتين وشعر فاحم قصير مع ابتسامة فاحشة وتكثر من اللعب بشعرها ومن التأفّف من الازدحام والحرّ. شجّعتني النظرات التي تبادلناها على محاولة التقرُّب منها. وشيئاً فشيئاً تمكّنت من الوصول بالقرب منها بالرغم من نظرات وانزعاج بعض الفتيات المحافظات وشكواهن: وين رايح؟ كنت أتحجّج بأنّي أبحث عن ابنة عمّي! تمكّنت من الوقوف وراءها وحملتنا موجة أخرى إلى الأمام قليلاً فاندفعت نحوها. كاد رأسي أن يضرب رأسها. شممت عطر شعرها ورائحتها وأحسست بليونة إِليتيها على جسدي قبل أن أعود قليلاً إلى الوراء. التفتت وقالت بغنج مبالغ به وبصوت يفيض شبقاً:

- أوي! هاي شنو؟

---

(٢٤) القائد.

- إِلعفو. شاسَوّي؟ هُمَّ دِفْعوني.

وابتسمت والتفتت. شفتاها مليئتان والسفلى أكبر قليلاً. أيقظ احمرارهما المزيد من مساحات الشبق المراهق الذي كان يستعمرني أيّامها. وددت أن أتذوّق نعومة رقبتها التي كان يطعنها خال صغير إلى اليسار. داعبتْ شعرها ثانيةً والتفتت مرّة أخرى مبتسمة مشجعة. استيقظت آلاف البراكين الصغيرة في دمي وأخذت تدفعني نحوها. أحسست بانتصاب كاد يمزّق بنطلوني. فكّرت أنّها قد تلتفت وتصفعني وقد يضربني الجميع كما حدث لأحد طلاّب مدرستنا الذي وقف وراء طالبة في زحمة الصعود إلى الباص قبل سنة. لكنّي واصلت الاندفاع نحوها برفق بين حين وآخر. سأتظاهر أنّها أمواج المسيرة المتلاطمة. نعم نعم للقائد. لم يكن هناك ردّ فعل من جانبها في البداية. لكنّها بدأت، بعد دقائق، تدفع بجسمها إلى الوراء. نعم نعم للقائد. تسارع إيقاعنا المشترك ببطء وثبات. نظرت حولي بخوف زاد من لذّة الطقس. ساعدتنا الفوضى والأمواج المتلاطمة في إخفاء رقصتنا المحرّمة. نعم نعم للقائد... نعم نعم للقائد... نعم نعم... نعم نعم... كانت هذه هي المرّة الأولى التي يعبّر فيها هتاف ما عن رغباتي الحقيقية في ألذّ استمناء[٢٥] من نوعه. استيقظت لأجد نفسي هنا(ك) غارقاً بلزوجة ساخنة.

---

(٢٥) استفتاء.

سمحوا لي بالاغتسال. ظننت أنّهم قد ينقلونني إلى مكان آخر أو بأنّ هناك محاكمة. هل اكتشفوا أمر الأوراق والكتابة؟ هل كان أحمد واحداً منهم والأمر برمّته خدعة؟ عندما سألتهم عن المناسبة، قال البدين ضاحكاً:

- لا، راح اِنْزَوْجَك... الليلة ليلة الدُخْلَة، بَسْ لازِم نْطَهْرَك أوّل مرّة ونْحَنّيك.

وضحك. وفاته أنّني كنت مختوناً. لكنّه افترض بجهله أنّ كلّ المسيحيّين لا يطهرون أولادهم.

- تِكْدَر تْكوم بيه لو نِسَيْت شلون؟

أما الآخر، فكان يحلو له دائماً أن يؤنّثني فحثّني على النظافة:

- يَلّله غَسْلي نَفْسِچْ زين! النظافة من الإيمان، بس إِنتي كافرة أساساً!

شعرت بالانتعاش وأنا أعبّ من رائحة صابون الرگي وأستقبل الماء الدافئ.

اقتادوني في ممرّ ضيّق مظلم وبارد ثمّ دفع بي البدين إلى داخل غرفة على اليمين. قال له رجل كان يجلس وراء المكتب داخلها بأنّه سيتدعيه عندما ينتهي. فخرج وأغلق الباب وراءه.

- اِتْفَضّل.

قالها بلهجة غاية في الدبلوماسية وأشار بيده إلى كرسي معدني أمام المكتب. جلست ببطء وكانت أوّل مرّة أجلس فيها

على كرسي منذ دهر. أحسست بألم في عجيزتي. إذاً ففكرة الاستحمام هي أن لا أُقرِف الأخ!

- شِتْحِبْ تِشْرَب؟

صدمتني هذه الرقّة والإنسانية في المعاملة ولم أدرِ ماذا أقول. هل قرَّروا أن يلتزموا بالاتفاقيات الدولية لاحترام حقوق السجناء أو الحيوانات؟ أضاف وكأنّه لاحظ ما كنت أفكِّر به:

- تَرَه إِحْنَه نُعْرُف أصول الضيافة. وضحك.

لم أقل شيئاً. بعد ثوان دخل رجل كبير السن وسأل:

- شْتُأمُر أستاذ؟

- چايِيْن أبو أحمد.

- صار أستاذ.

كان مضيفي في أواخر الثلاثينيات بعيون عسلية وشعر أسود قصير وجبين ضيِّق وشارب كثّ لافت للنظر على طريقة «٨ شباط عروس الفورات». [٢٦] كان يرتدي قميصاً أبيض بياقة مفتوحة. وكانت هناك سترة رمادية معلّقة على مشجب في زاوية الغرفة، وتحتها مظلّة سوداء اتّكأت برأسها على الجدار الأبيض وعليها بضع قطرات ندية وأخرى تتساقط منها على الأرض كأنّها تبكي. إذاً هناك مطر! لم أسمع. آه من الجدران. جدران دونها جدران! تذكّرت الغيوم! وبدّد صورتها ثانية:

---

(٢٦) الثورات.

- تُدَخِّن؟

- لا.. شكراً.

أجبته بهدوء.

- عين العقل. واللّه زين تْسَوّي.

ما هو الهدف من هذه المسرحية؟ لم أكن قد رأيت هذا «الأستاذ» من قبل ولا أتذكَّر أنّي سمعت صوته. أخذ سيجارة من علبة سومر سوداء، هه... يشجِّع الصناعة الوطنية. أعاد العلبة إلى مكانها على المكتب قرب ساعة منضدية بعقارب ذهبية وبجانبها صورة القاعد[27] باللباس العسكريّ «مع تحيات وزارة الداخلية». كانت الساعة الثامنة والنصف. هناك أوراق وملفات مبعثرة على الطاولة. أعاد كرسيه إلى الوراء قليلاً ونفث غيمة من الدخّان عبرت، في طريقها إلى السقف، لوحة مؤطرة بإطار معدنيّ كتب عليها بالخطّ الكوفيّ: «نحن أقوياء بلا غرور ومتواضعون بلا ضعف».[28] وعلى بعد نصف متر إلى اليسار منها كانت هناك صورة أخرى للقاعد مع ابنته. تذكَّرت واحدة من نكتي المفضّلة عن رجل مصاب بالكآبة يذهب إلى عيادة الطبيب النفسانيّ ليبحث عن علاج، ويقول للطبيب إنّه لا يتحمّل الحياة كما هي عليه، فيبشره الطبيب بمخدِّر يمكن أن يتناوله المرء وينام نصف قرن ليستيقظ في زمن تكون فيه الأمور

---

(٢٧) القائد.

(٢٨) مقولة الأب القائد (حفظه الله ورعاه).

قد تغيَّرت أو تحسَّنت. يفرح المكتئب ويشتري الدواء ويستيقظ بعد نصف قرن ليجد أنَّ حفيد الرئيس قد خلفه وبأنَّ الأمور ما زالت كما هي، والناس يهتفون «هلا هلا بابن حلا!». دخل الفرّاش ووضع قدحاً من الشاي أمام الأستاذ وآخر أمامي. داهمني شعور غي منطقيّ بأنّه يعرف أنّي أفكِّر بالنكتة وأسترجعها. لم أتعلّم الدرس بعد. كيف أوقف القفز التلقائيّ والطبيعيّ بين الكلمات والصور والمعاني؟ هه، ها أنذا أمارس الرقابة الذاتية على أفكاري وآليات عقلي. «نريد من العراقيّ أن يكون ضميره هو الرقيب!»[٢٩] نعم. بحثت عن تقويم على الحائط أو على طاولته كي أعرف موقعي من الزمن، لكنّي لم أجد شيئاً. كنت قد سألت أحدهم ذات يوم عن التاريخ، فضحك قائلاً:

- ليش عندك موعد؟

- إِتْفَضَّل.

بدأ يخلط شايه، والسيكارة ما تزال حبيسة بين أصابعه. مددت يدي لأخلط الشاي الذي كانت رائحة الهال تفوح منه. احتسيت جرعة وأعدت القدح إلى صحنه. السكر قليل ومع ذلك كان طعمه لذيذاً. آه، ذكَّرني طعمه بسويعات العصر مع جدتي وأحاديثنا في الطارمة أو أمام التلفزيون. ترى كيف هي

---

(٢٩) مقولة الأب القائد (حفظه الله ورعاه).

الآن؟ وهل تعرف بأنّي هنا؟ هل تبحث عن واسطة للاستعلام عن وضعي؟ احتسى هو جرعتين ثم أعاد السيكارة إلى فمه.

- إِنتَ شاعر؟

- يعني... أكتب.

ضحك.

- شِنو هالتُّواضُع يابَه؟

ثمّ أضاف بعد نصف دقيقة من الصمت الثقيل:

- آني من المغرمين بالشعر ونشرت «قصيدة» مرّة بجريدة القادسية. حَبّيت أسولف ويّاك. بس آني يمكن تقليديّ بالنسبة إِلك ولْجماعتك... أكتب عمودي... على طريقة الأجداد العظام!

قال الجملة الأخيرة بجدية.

لم أكن مستعداً للدخول في جدل حول قصيدة النثر وشرعيتها. ظننت أنّه ربما شعر بالملل من وظيفته وكان يبحث عن مستمع لآرائه السخيفة. فهل أنا النديم المحظوظ؟ لكنّي كنت صريحاً معه فقلت:

- أكو عمودي حلو!

فضحك.

- ماكو داعي تجاملني.

ثمّ أضاف:

- تِدْري آني أنظر لها لْموضوع من ناحية أخلاقية وسياسية

مو بَسْ أدبية وفنية. لأنّه الثقافة مَتِنْفصل عن الواقع. مثلاً، إِحنه هَسّة بحالة حرب ووجودنا مهدَّد، حدودنا مهدَّدة. ولازم كلّ إبداع يكون تعبوي. متگدر تكتب عن البحر أو عن الخيال العلميّ. وفصل الثقافة عن الواقع تخاذل وعمل رجعيّ... بالنسبة إلي هذا الشعر الحديث مالَتْكُم، وخصوصاً ما يسمّى بقصيدة النثر، «تصفيط حچي» سخيف ولَغْوَة لا أكثر ولا أقلّ. شلون التقاليد الأدبية الراسخة اللي ورثناهَا تنضرب بعرض الحائط ويگوم الواحد يركض ورا موضات أجنبية سخيفة ومستوردة. وگِلِتْ موقف أخلاقي لإِنّه بعد كلّ المنجزات اللي انْطَتْهَا الثورة لهالجيل يْظَل أكو إِنكار للجميل. مثلاً إِنت طالب بس، بخلاف معظم دول العالم، متدفع تكاليف الدراسة أو الكتب. كلّ شي متوفِّرلك. وشلون ترد الجميل؟ بالاستهتار والتعدي على المقدّسات.

لم أقل شيئاً، بالطبع. فما جدوى النقاش معه؟ كالعادة يركّز الرفاق على الواجبات ويتناسون الحقوق التي يفترض أن تكون، هي الأخرى، مقدّسة. كان هناك مذياع صغير تنبعث منه موسيقى خافتة. فتح ملفاً كان على الطاولة وأخذ يقلِّب الأوراق التي كانت فيه. لاحظت وجود مفكّرة يومية بالقرب من منفضة السكائر التي ترك فيها ما تبقى من سيكارته وعاد إلى قدح الشاي ثانية. حاولت أن أقرأ التاريخ لكنّي لم أفلح لأن الجزء العلويّ منها كان مغطّى بأحد الملفّات. بحثت عن تقويم على الجدار

لكنّي لم أجد شيئاً. فقدت الوعي عدّة مرّات وفقدت تسلسل الأيّام الذي حرصت عليه منذ البداية. لا أذكر الآن كم استمرّ هذا اللقاء أو ما قاله أو أي تفاصيل بعد أن تصفّح الملفّ. لكنّي أذكر أنّه في النهاية نادى على الفرّاش وطلب منهم أن يخرجوني، وأذكر أنّي سمعته يقول وأنا أخرج: ماكو چارة... مَتْصيرون أوادم!

كنت أنتظر فلاح أمام ملعب الشعب كالعادة وقد اشتريت التذاكر بحسب الاتفاق. كانت قوات الطوارئ المكلّفة بحماية القصر هي التي تشرف على أمن الملعب عند حضور الأستاذ للمباريات، وتأخّرت يومها في الحضور مما سبّب فوضى وتأخير في عمليات تفتيش المتفرّجين وإدخالهم. كانت المباراة ستبدأ بعد ربع ساعة. وحالما وصل فلاح انضممنا إلى الجموع المتزاحمة خارج البوابة الخارجية. وبعد التدافع وما يشبه حرباً بالسلاح الأبيض وصلنا إلى المدخل وجرى تفتيشنا وأخذ التذاكر منّا (التفتيش الأوّل في سلسلة التفتيشات). ثمّ أصبحنا داخل سور الملعب. كان هناك الكثير من جنود قوات الطوارئ بكامل عدّتهم ومعهم الكلاب البوليسية. كانوا في مقتبل العمر وأغلبهم لم يتعدّ العشرين، لكنّهم كانوا أشرس من كلابهم بفعل التدريب القاسي. كانوا يحاولون ترتيب دخولنا إلى مدرّجات الملعب في طوابير منتظمة أمام الأبواب السبعة التي تفضي إلى المدرّج، لكنّهم كانوا يفتقدون الخبرة وربما الذكاء العمليّ

البسيط اللازم لإنجاح عملية كهذه. كان البعض منهم يستخدم العصا الثقيلة والمؤذية «الكيبل» لضرب من يخرج عن الطابور أو يزيح عنه قليلاً.

وكانوا يطلقون عنان الكلاب البوليسية في لحظات الفلتان لتعضّ بعض المتفرّجين وهم يضحكون عليهم بسادية. انتظمنا في أحد الطوابير ووقفنا ننتظر بهدوء. كانت البوّابة التي وقفنا أمامها مقفلة لسبب ما! شاهدنا الطوابير الأخرى تبدأ بالدخول وسمعنا هتافات الجمهور «يا زوراء يا مدرسة، فنّ ولياقة وهندسة»، وأيقنّا أنّ الفريقين قد خرجا إلى ساحة الملعب. لكنّ الجنديّ الذي كان يشرف على عملية تفتيش طابورنا وإدخاله حذّرنا وهو يهزّ الكيبل الذي في يده «واللّه اللّي يتحرّك أكْسِر هاي إِغلى ظَهرو... أوگفو مِثْلَ الأوادم وتِدْخَلون». طالب أحد الواقفين بعد دقائق، وكان رجلاً وقوراً في الخمسينيات ويرتدي بدلة أنيقة، بفتح البوّابة لكي ندخل أو بالسماح له بالانتقال إلى طابور آخر، لكنّ الجنديّ أسكته بإهانة ولوّح مهدّداً بالكيبل. كان واحد آخر يمشي بجانب الطابور و«يرتّبنا» بالكيبل الذي في يده ويمرّره على أكتافنا واحداً بعد الآخر كأنّه يحصي غنماً. بعد دقائق سمعنا صافرة الحكم تعلن بداية المباراة. وعيل صبر الكثير منّا وأخذنا بالتململ. ثمّ فتحت البوّابة أخيراً ولأنّ الجنود كانوا بطيئين في تفتيشنا وإدخالنا سارع الكثير منّا باتّجاه البوابة للصعود إلى المدرجات. وأخذ الجنديّ نفسه الواقف عند

البوابة يضربهم على ظهورهم بقوّة وهو يصرخ: واللّه ما تصيرون أوادم! ما تصيرون أوادم!

أضعت محفظتي بعد تلك المباراة، التي أمطر فيها الزوراء شباك نادي الرشيد بثلاثة أهداف، وعوقب بعدها لاعبو الرشيد المساكين بحلق رؤوسهم وبالسجن والعقوبة العسكرية لمدّة ثلاثة أيّام. حزنت على النقود التي ضاعت ولكنّي كنت أيضاً بحاجة إلى هوية الطالب الجامعية.

قيل لي أن أراجع ضابط أمن الكلية لتقديم طلب الحصول على هوية جديدة «بدل ضائع». كان الرفيق أبو عماد يرتدي بدلة السفاري الزرقاء كعادته، وقال لي إنَّ التعليمات تستوجب إجراء تحقيق قبل إصدار هوية جديدة. فوجئت بجدية الموضوع، وعندما أبديت دهشتي انزعج وقال بنبرة توبيخية:

- إِنت تدري أكو ناس يزَوّرون هالهويات ويْبيعوها للفرار؟

كان عدد الفارّين من الجيش قد ازداد وتوزّعت المفارز ونقاط التفتيش التي تبحث عنهم. وصدرت أوامر تسمح للناس بإطلاق النار عليهم إذا ما حاولوا الهرب. كما أصبحت الإعدامات العلنية، ليكون هؤلاء «عبرة لمن اعتبر»، مسألة عادية تجري بين الحين والآخر ويدعى الناس في المحلّة إليها.

طلب منّي أن أتبعه إلى غرفة أخرى وطلب من أحد مساعديه أن يتولّى الموضوع. كان هذا المساعد هو الشخص نفسه الذي يقف في الصباح عند مدخل الكلية ويمنع الذين

يخالفون الزيّ الموحّد أو الذين لم يحلقوا لحاهم من الدخول.

طلب منّي مساعده أن أجلس وأخرج ورقة بيضاء من الجارور وبدأ يتكلّم بالفصحى! وراق لي هذا الانتقال إلى فضاء الخطاب الرسميّ، فأجبته أيضاً بالفصحى التي كنت متأكّداً من عدم إتقانه لها!

- متى وأين أضعتَ الهوية؟

- أعتقد بأنّها ضاعت مني أثناء حضوري مباراة كرة قدم قبل يومين.

- هل حاولت البحث عنها؟

- نعم، بحثت عنها كثيراً من دون جدوى!

وحدجني بنظرة انزعاج بعد سماعه «من دون جدوى».

- ألا تعلم بأنّ الهوية وثيقة مهمة ويجب الحفاظ عليها؟

- نعم، ولكنّها ضاعت منّي أو ربّما سرقت لا أدري واللّه أعلم. لكنّ السبب ليس الإهمال.

- هل تعد بالمحافظة على الهوية الجديدة من الضياع والتلف وتلتزم بإعادة الهوية القديمة إذا عثرت عليها؟

- نعم.

ثمّ طلب منّي أن أوقّع على «المحضر» عائداً إلى الدارجة!

- لازم تروح تدفع الغرامة بالحسابات وتجيبلي وصل وصورتين وتِسْتِلِمْ الهويّة باچر أو عُگْبَه.

عدت إلى البيت وكانت جدّتي تشاهد التلفزيون كعادتها.

كان القاعد[٣٠] يقلّد نوط الشجاعة لرجل قتل ابنه لأنّه رفض الالتحاق بوحدته العسكرية! كان الرجل ـ البطل الذي جاء إلى القصر بالدشداشة البيضاء التي ينام بها. وحين طلب منه أن يروي تفاصيل الحادث البطوليّ، تبيّن وكأنّه قتله بعد مشاجرة لا علاقة لها بالوطنية، بل بخلافات عائلية. لكنّ الموقف البطوليّ استخدم لتعزيز روح النصر وترسيخ مفهوم المواطن الجديد الذي يضع الوطن فوق كلّ شيء، حتّى فلذة كبده! ضربت جدّتي كفّاً بكفّ غير مصدّقة:

- نعيش ونشوف. إِي هذا شلون حيوان هذا! مَيْخاف من اللّه؟

هاأنذا أنجرف بتسرُّع طفل اكتشف لعبة جديدة. يجب أن أتروّى. أنا متأكّد من عدم وجود كاميرا تراقبني، فالمبنى قديم ولم يصمَّم أساساً ليكون سجناً. هو، بالتأكيد، بيت قديم صودر وحُوّل إلى معتقل. يمكنني سماع وقع أقدام أيّ شخص قبل قدومه وهذا يعطيني وقتاً كافياً لكي أخفي الأوراق تحت المرتبة. وحتّى إذا اكتشفوها فسيظنّون بأنّي جننت. يمكنني أن أبتلع هذه الورقة. وأحمد؟ إذا كان صادقاً فإنّه سيدفع الثمن.

في آذار طلب منّا الأستاذ المشرف على مادة طرق البحث أن نفكّر بموضوع ما، وأن نبدأ بالبحث عن المصادر المتوفّرة

---

(٣٠) القائد.

ونجتمع معه لإقرار الموضوع ومناقشته قبل الشروع بكتابة البحث.

كنت قد قرأت «مزرعة الحيوانات»[٣١] قبل شهرين بالإضافة إلى مقالة عن ١٩٨٤[٣٢] وجدتها في كتاب استعرته من مكتبة القسم. كنت أنوي قراءة الرواية، وخطر لي أن أكتب بحثي عن العلاقة بين السلطة واللغة فيها. اعترضت أريج وقالت إنّ الموضوع حسّاس وبأنّها خطوة مجنونة قد تؤدّي إلى مشاكل، ولن تثبت أو تحقّق شيئاً. لكنّي كنت مصرّاً وعنيداً. ذهبت إلى مكتبة القسم واستخرجت اسم الكتاب ورمزه وموقعه وأخذت قصاصة الورق إلى أم سعد، أمينة المكتبة، التي كانت تعرفني جيّداً. نظرت إلى القصاصة وذهبت إلى الرفوف في الخلف، ثمّ عادت بعد دقيقتين وقالت بلطف:

- ما أَگدَر أَطلِّعلك هذا الكتاب عيني.

- ليش؟

- ممنوع.

- بس مِحْتاجَه ضروري للبحث مالي.

- موبيدي.

- مِنو قرَّر إِنّه ممنوع؟

---

(٣١) رواية لكاتب اسمه جورج أورويل وهي ممنوعة.

(٣٢) رواية لنفس الكاتب أعلاه وهي ممنوعة. هناك فلم بنفس العنوان.

- أكو لجنة خاصة وهمَّ يِبْعثولْنا القائمة. دكتور خالد وأستاذ سعد و. . . ما أدري منو بعد.

- اللّه يخَلّيج! بَسْ ساعتين حَتّى أَسْتَنْسِخَه.

- ما أَگْدَر!

- فِدوة.

لم تفلح توسُّلاتي بإقناعها بمخالفة التعليمات، لكنَّها فتحت باباً آخر.

- ممنوع عيني، الطريقة الوحيدة هي إِنَّهُ تجيبلي موافقة من رئيس القسم.

- زين. هَسَّه أروح أَخجي وِيّاه.

كنت على علاقة جيّدة مع الدكتور خالد، رئيس القسم، حيث كان قد درّسنا مادة المسرحية في السنة الأولى وأعجبته مشاركاتي في مناقشة هاملت ومقارنة محنته بمحنة المثقف. رأيته يقف أمام مكتبه ويحادث أستاذاً آخر. انتظرت أن يكمّلا الحديث قبل أن أقترب منه محيياً، وحين شرحت له الموضوع ابتسم وقال لي:

- ليش تريد تْدَخّلْنا بمشاكل يا إِبني؟! ثمّ استدرك قائلاً:

- هِيَّ مابيها شي طبعاً. عالأنظمة الستالينية. . . قريتها لمَّن چِنِت طالب بشيكاغو. بَسْ شوفْلَك موضوع ثاني أَحْسَنْ!

ثمّ ربّت على كتفي وقال:

- دير بالك إِبني!

شكرته وخرجت. حاولت بعدها البحث عن الرواية في مكتبة المعهد البريطانيّ القريب من الكلية، لكنّ أحد الأعضاء كان قد استعارها وكان عليّ الانتظار لشهر. أخبرت الأستاذ طارق المسؤول عن البحوث عن الفكرة وعن حاجتي لمزيد من الوقت كي أحصل على الرواية من دون أن أقول له إنّها ممنوعة. لكنّه رفض إعطائي المهلة ورفض فكرة البحث من أساسها.

- مِنو هذا أورويل. أشو ما سامع بيه آني؟

كان الأستاذ طارق المسرف[٣٣] في غيابه قد حصل على شهادة الماجستير في علوم اللغة الإنكليزية وآدابها بتفانيه في خدمة الحزب في سنين الحرب، وبمراقبة زملائه وكتابة التقارير وليس بإتقان اللّغة أو التبحّر في واحد من حقولها. كان قد تقدّم باقتراح عبقري لتدريس خطابات القاعد[٣٤] كنصوص أدبية بعد ترجمتها إلى الإنكليزية. في النهاية قرَّرت أن أكتب عن فشل اللغة كوسيلة للتواصل في مسرحيات بيكيت. وقرّرت إرجاء موضوع أورويل إلى بحث مستقبلي.

أيقظني صرير الباب وهو يفتح مهشّماً إغفاءة قلّما يسعها أن تكتمل قبل أن تصطدم بصرخة أو أنين أو صوت باب يفتح أو يغلق. لم أكن أتبيّن الأشياء بوضوح. أطلّ أحدهم وألقى برزمة

---

(٣٣) المشرف.

(٣٤) القائد.

أوراق في وجهي وضحك بسخرية، وقال باستهزاء وهو يغلق الباب:

- هاك يا شَعّار. إكتب! بَلْچَنْ تِرْبَح النوبِل وانْتَ بالسجن... حَتَّى يِفْتِخِر بيك العراق!

لم أتحرَّك. تعلَّمت هنا دروساً لم أتعلَّمها في الخارج. ولو كنت تعلَّمتها لما انتهى الأمر بي هنا. عدم التسرُّع أو التهوُّر والصمت وتأخير ردود الأفعال لأطول فترة ممكنة. ترى هل هي خدعة جديدة لإذلالي؟ هل يتوقّعون فعلاً أن أكتب أيّ شيء وأساعدهم في ملء الفراغات... وهل هم بحاجة إلى أدلة أساساً؟ وعلى ماذا؟

لم أتحرَّك ولم أمس الأوراق ولا القلم الأسود رغم تأكُّدي من عدم وجود كاميرا. لكنّي لست متأكّداً الآن، ربّما كان هذا كابوساً؟ آه. أذكر واحداً آخر بوجه أكثر سماحة. نعم... وجهه الآن أكثر وضوحاً. في منتصف العشرينيات بشارب أسود خفيف وعيون سوداء ثاقبة. فتح الباب وأغلقه بهدوء واقترب منِّي وركع قربي، وضع الأوراق بهدوء قرب قدمي مع قلم جاف أسود، وهمس قائلاً:

- مَرْحَبا... طِلَبِتْ مِنْهُم يحَوْلوني هنا لمَّن سمَعِت أكو كاتب. أبويه چان روائي مشهور أكيد سامِع به.. حسن الأوقاتي.. مات قبل الثورة. رحأحاول أجيبلك مجلات أو كتب. رخأروح هَسَّة وأرجَعْلَك بَعْدين. زين؟

كان يلتفت وراءه وهو يتكلَّم بصوت خفيض. طبطب على كتفي وأضاف قبل خروجه:

- إسمي أحمد.

كان في عينيه السوداوين بريق صدق مقنع. هل أكون محظوظاً إلى هذه الدرجة؟ هل يكون واحد من الخوارج في هذا الداخل الشاسع؟ لكن لا! لا يمكنني أن أثق بفراستي ولا حتّى بحواسي بعد الآن. لقد مرّت أيّام لا أدري ربما أسابيع هادئة بدون «حفلات» كما يسمُّونها (يَلله مَعْزوم عِذْنَا اليوم... ضيف الشرف). ربّما هم منهكون بآخرين. يُخيَّل لي أنّي سمعت صوتاً جديداً قبل أيّام.

بقيت أجلس القرفصاء في الزاوية ورأسي بين يدي أحاول أن أعصر الألم وأخرجه من دون جدوى. كان الألم الحادّ في ضرسي قد هاجر إلى صميم رأسي وأخذ يضرب بساديّة لا ترحم. عندما طلبت منهم أن يفحص ضرسي طبيب ضحكوا وقال البدين:

- تريد نجيبلك ممرّضة هَمّينَه؟ شِنو گاعِد بالشيراتون؟ ليش ما تمُضلّيّاه عَلمود ترتاح؟ هاي وصفة قديمة تعَلَّمِتْها من أمك.

سأنتظر. ربّما يكون كلّ هذا مجرّد كابوس آخر. إن لم يكن كذلك، فلماذا يغامر هذا الأحمد من أجلي؟ ربّما يحاول أن يعوِّض عن الذنب الذي يشعر به لأنَّه يعمل معهم. هناك الكثيرون من الذين تجبرهم الظروف على العمل في هذه

الأجهزة والأماكن من دون أن يفقدوا كلّ إنسانيّتهم. هل أحمد، إذا كان هذا فعلاً اسمه، واحد منهم؟ لا أدري!

استيقظت ثانية لأجد نفسي هنا(ك).

كان الأستاذ كمال يتحدَّث عن السياق التاريخي والاجتماعي الذي أدَّى إلى ظهور مسرح العبث وأهمية مسرحيات بيكيت، حين قاطعته طرْقات على باب الصفّ ودخل أحد الرفاق ببدلته الخاكية. آن الأوان لكي يقاطع البعث العبث. كانت هناك إشاعة تتردَّد ذلك الصباح عن مسيرة للاحتفال بالنصر الجديد. وطبعاً، في حالة كهذه، تتوقَّف المسيرة التعليمية لتستمرّ المسيرة النضاليّة الثورية!

- إلعفو أستاذ بَسْ أكو مسيرة فرجاء الكلّ يتجمَّع بالساحة الرئيسية جَوّة البلكونة.

حمل الأستاذ أوراقه بصمت ولم ينبس ببنت شفة. كيف وهو الشيوعيّ السابق الذي قضى سنوات طويلة في مكان كهذا قبل أن يخرج مكسوراً، يشبه واحدة من شخصيات بيكيت أكثر ممّا يشبه نفسه.

في خلال دقائق كان الرفاق أعضاء الاتّحاد الوطنيّ لطلبة العراق، الذين يفترض أن يمثّلونا، يهشوننا كالغنم باتّجاه الموقع المعهود. تمّ إغلاق القاعات والصفوف. تلكّأ البعض منّا لتأجيل قضاء مبرم بالذهاب إلى الكافيتيريا، لكنَّهم أمروا مديرها بأن يغلق أبوابه ويطرد الزبائن. أغلقت كلّ المنافذ والأبواب وانتهى

بنا المطاف في الساحة الرئيسية للكلية أمام شرفة وقف عليها عدد من المسؤولين الحزبيين والأساتذة لإلقاء خطابات قبل انطلاق المسيرة.

قبل حوالى ست سنوات كان قد قطع درس الجغرافيا رفيق آخر اسمه نوفل. كنّا يومها في الصفّ الأول المتوسّط وكانت الحرب مع إيران في شهورها الأولى. كانت موضة ارتداء الملابس الخاكيّة من قبل الحزبيين، التي أصبحت تقليداً فيما بعد، في بدايتها. كانت أستاذة الجغرافيا، الستّ هناء، ترينا على الخارطة كيف يدخل نهر الفرات بعد مروره بسوريا أرض العراق عند مدينة القائم عندما اقتحم الرفيق، الذي كان يكبرنا بعدّة سنوات، الصفّ بملابسه العسكرية. وبعد محاضرة عمّا قدّمه الحزب لجيلنا من مجانية التعليم وإنجازات أخرى، قال الرفيق إنّ أقلّ ما يمكن أن نقدّمه للحزب كردّ للجميل هو أن ننتمي إليه كمؤيّدين، ونعطيه نزراً يسيراً من وقتنا بحضور الاجتماع الأسبوعيّ. تعلّل البعض بالواجبات وغيرها، لكنّ الرفيق نوفل فنّد أعذارنا بحركة بسيطة عندما قام بتوزيع استمارات الانتماء لكي نملأها. إضافة إلى المعلومات العادية والديانة والقومية والانحدار الطبقيّ، كانت هناك أسئلة لم يكن الكثير منّا يعرف جواباً لها، مثلاً: هل هناك أقرباء من الدرجة الثالثة يعيشون خارج القطر؟ لكنّ أخطر وثيقة كان علينا أن نوقّعها ونحن لم نتجاوز الثالثة عشرة بعد هي التعهُّد الذي نقرّ

فيه بأنّنا لا ننتمي إلى أيّ من الأحزاب المعادية: حزب الدعوة أو الحزب الشيوعيّ. وبخلافه فأنّنا نعرِّض أنفسنا لعقوبة الإعدام. الطريف أنّ الإقرار بالانتماء إلى هذه الأحزاب كان غالباً يؤدّي إلى العقوبة نفسها! وفي الأسبوع التالي دخلنا الاجتماع الأوّل وكان موعده يوم الإثنين بعد انتهاء الدوام. شرح لنا المسؤول الذي كان طالباً في الصفّ الرابع الثانويّ، هيكلية الحزب ومهامنا في أن نكون عيوناً ساهرة تبحث عن أعدائه في كلّ مكان، في البيت والشارع والمدرسة، وأن لا نفوِّت فرصة في الإبلاغ عن موقف أو شخص مثير للشبهات. لاحظت مبكّراً أنّ هناك تناقضاً جوهرياً في هذا الخطاب.. فلقد تعلّمنا أنّ الشعب كلّه يحبّ الحزب والثورة لما قدّماه لنا من منجزات. فلماذا ومن أين كلّ هؤلاء الأعداء؟ ووزّع علينا التقرير المركزيّ للمؤتمر القطريّ الثامن، وطلب منّا المسؤول أن نقرأ الفصل الأوّل استعداداً لمناقشته في الاجتماع التالي إضافة إلى متابعة الأخبار لمناقشة القضايا السياسية المهمة، عربياً ودولياً. علّمنا الرفيق المسؤول قواعد كتابة التقارير الحزبية والشعارات التي يجب كتابتها على صدر التقرير. شعار الحزب أعلى يمين الصفحة ثمّ الفرقة والشعبة والفرع والمنظمة.

عندما عدت إلى البيت أخذت أقلّب التقرير القطريّ ووجدت أنّ الفصل الأخير كان مكرَّساً لمواقف الحزب من القضايا الراهنة، وفي القسم المخصّص لقضية فلسطين كان هناك

هجوم على الملك الذي وصفه التقرير بـ«العميل». كان الملك قد زار العراق أكثر من مرّة في الأشهر السابقة معبّراً عن دعمه ومساندته للعراق في حربه. وكان اسمه في التلفزيون دائماً يسبق بِـ«جلالة الملك... عاهر[٣٥] المملكة». وفي الاجتماع الثاني سألت مسؤولنا عن الموضوع، فقال بارتباك إنّ هذا التقرير قديم وأنّ التقرير الجديد سيوزع علينا خلال أسابيع، ووبّخني على قراءة أجزاء لم يطلب منّا أن نقرأها. اكتشفت يومها أنّ الأفكار والشعارات السياسية مثل الأحذية تستبدل بحسب المناسبة والأرضية.. فهناك اللمّاعة والثقيلة والمرنة والمهمّزة. كنّا، أنا وعلي، نقع في مشاكل لأنّنا كنّا نضحك كثيراً في الاجتماعات، وطردنا المسؤول ذات مرّة موبّخاً وقائلاً: مَحَّد ضَربْكُم عَلَى إيذْكُم وجُبَرْكُمْ تِنْتِمون لِلْحِزِب. إِحْنا مِهْتَمّين بالنوع مو بالكَمْ! وبدأنا نهرب من الاجتماعات ونلعب كرة القدم بعد أن مللنا من الموضوع بأكمله. وكان أن شبّ حريق في غرفة الاتحاد الوطنيّ لطلبة العراق وأتلفت كلّ الملفات والوثائق. فعاد الرفاق بعدها إلى الصفوف وطلبوا من كلّ المنتمين أن يقفوا لتسجّل أسماؤهم. واقترح عليّ أن لا نقف لكي نتخلّص من الاجتماعات ووافقت، بالرّغم من خطورة الموقف. وعدنا، بذلك، إلى خانة المستقلّين. حاول بعدها البعض أن «يكسبنا»

(٣٥) عاهل.

لكنّنا رفضنا. وبقيت مستقلاً ورفضت أن أنتمي في الجامعة، بالرّغم من أنّي هُدِّدْتُ بأنّهم لن يوافقوا على دخولي برنامج الماجستير إذا لم أنتَمِ، مع العلم أنّ «كلّ العاملين الجيِّدين هم أبناء الثورة وهم بعثيون وإن لم ينتموا!»[٣٦]

لم أكن بمزاج يسمح لي بالتحدُّث مع الآخرين. كانت هناك لافتة كبيرة قد علِّقت على السور الحديديّ الذي يحيط بالشرفة، وكتب عليها «جند القائد يسطّرون ملحمة جديدة». خرج عميد كلية الآداب إلى الشرفة ومعه لفيف من معاونيه وتقدّم ووقف أما اللاقطة لإلقاء خطبته العصماء. كانت الأخبار تشير إلى أنّ الجيش صدّ هجوماً كاسحاً تكبّد فيه العدو عشرات الآلاف من القتلى. كانت السيّارات التي تحمل الشهداء الملفوفين بالأعلام قد بدأت تصل من الجبهة معلنةً حجم الخسائر التي لا تعلنها البيانات العسكرية. فقد جرت العادة بعد عدّة أشهر من الحرب ألاّ يتمّ ذكر خسائرنا! العميد تسلّم منصبه قبل حوالى سنتين، بعد أن أمطر الصفحات الثقافية للجرائد بمقطوعات «رجز في المعركة» حافلة بكلّ شيء إلاّ الشعر. كنت أشعر بالغثيان عند الاستماع لهذه الخطابات وأحاول التقوقع في عالمي الخاص، ولا يتناهى إلى سمعي إلاّ صوت التصفيق الذي يعقب الكلمات السحرية: القائد، الحزب،

---

(٣٦) مقولة الأب القائد (حفظه الله ورعاه).

الثورة. . . إلخ. كنت أضع يدي في جيوبي وكنت قد توقّفت عن التصفيق من أيّام الثانوية كنوع من الرفض الصامت، برغم تحذيرات البعض من أنّهم يكتبون تقارير عمّن لا يصفق. رعد، الذي كان يلعب الكرة معنا في الشارع عندما كنّا أطفالاً، اختفى وقيل إنّه في الـ«جَوَّة» لأنّه لم يكن يصفّق! يمكنني أن أتحجَّج بأنّي أشكو من ضعف في يدي اليسرى وأنّ يداً واحدة لا تصفق!

كنتِ يومها تقفين لوحدك كجزيرة صمت وسط ضجيج التصفيق والشعارات غير آبهة بمهرجان الإسفاف، تتصفَّحين مجلة. كنت أعرفك من درس اللغة الفرنسية الذي كان يُجمع فيه طلاّب وطالبات من شِعَب مختلفة. فقد لفتّ انتباهي منذ السنة الأولى وحاولت أن أعرف المزيد عنكِ، لكنكِ كنتِ في شعبة أخرى لا تجتمع مع شِعَبِنا. وهذه السنة ظهر اسمي في قائمة شعبة أخرى. جمعتنا محاضرة الفرنسية. كنت قد بدأت أحاول الجلوس بالقرب منكِ، وبينما يحاول الطلاّب تصريف الأفعال الفرنسية في الأزمنة المختلفة، كنت أحاول إعراب تفاصيل جسدك في الزمن المضارع، وحواسي تترجم «نعم» حين يقرأ الأستاذ قائمة الحضور. كنت أقرأ تفاصيل جسدك بنهم طفل يتعلَّم لغة جديدة. وحين لا أحصل إلاّ على مكان خلفك في القاعة، كنت أستهلّ طقسي من شحمة الأذن التي غالباً ما كان يطعنها قرط فضيّ، برغم الثراء والانحدار الطبقيّ الذي كنتِ تحاولين تغطيته ببساطة أنيقة، إلى الرقبة الناعمة، ثمّ ما

تيسّر من الزند إلى الأساور الفضية التي كانت تتراقص كمجموعة من الغجر حول رسغك حين ترفعين يدك لتجيبي على سؤال؛ ثمّ الخصر الموجز الذي جاء «بحجم أحلامي وتصوّراتي» كما يقول نزار. كنت أستقرئ العري الذي تقمعه الملابس. أمّا عطرك فكان يلوّن صباحاتي بأقاليم من الشبق ويفضح محاولاتك لإخفاء ثراء العائلة. وقع منك مفتاح السيّارة بعد انتهاء المحاضرة ذات مرّة وأنت تجمعين حقيبتك وكتبك. وانحنيت لأحمل السلسلة لكنّك كنت أسرع منّي، وكانت فتحة قميصك معطاءة، فرأيت بلاد ما بين النهدين يخنقها حرير أسود ترك السفوح حرّة. خلتني أسمع هتافات الاحتجاج والرفض وشهقت عيناي بصمت. لكنّك استعدلتِ وشكرتني بابتسامة أجبتُ عليها بأدب يناقض ما كنت أفكّر به: عفواً.

لمت نفسي بعدها لأنّي لم أحادثك. فقد كنت أفكّر بك منذ أسابيع. لكنّي لم أنتهز الفرصة وتركت أنتِ القاعة مسرعة. ها أنت الآن وحيدة تتصفّحين مجلة «اليوم السابع» التي لم أحصل عليها هذا الأسبوع. كانت قراءتك المجلة أثناء خطاب العميد علامة جيّدة على شعورك إزاء الموقف. كنت قد بعثت بنص قبل أسابيع ولم ينشر بعد. هذا عذر ممتاز للكلام معك. استجمعت شجاعتي ومشيت نحوك.

- آني فرات وَيّاج بدرس الفرنسي.

- أهلاً.

- آسف عالإزعاج بَسْ مُمْكِن المجلة بَسْ شويّة؟ أريد أتأكّد من شي وما حَصَّلِتْها هالأسبوع.

فابتسمتِ وناولتني المجلة:

- طبعاً، تفضل!

تصفّحت المجلة باحثاً عن الصفحة الثقافية، وكان النصّان اللذان بعثتهما في الزاوية اليمنى مع تخطيط جميل. شعرت بالزهو، فقد كانت هذه ثاني مرّة ينشر لي شيء فيها.

- ممكن بس أقرا هالصّفْحة؟

- إِي إِي.. تْفَضَّلْ! ثمّ أضفتِ وأنتِ تشيرين إليها:

- مو إسمك هذا؟

- بَلي.

- مبروك.. يعني الإشاعة صحيحة.

- يا إشاعة؟

- إِنّه إِنت تكتب.

- الأخبار تطلع بسرعة هالأيّام.

- وشَكو بيهَا. قابِل عيب الواحد يكتب؟

- لا.. بالعكس.

- اشتريتها الصُبُح وما لحَّگِت أقرَه، بَسْ شِفِتْ إِسمك وگِلِتْ لازم أقراها تشجيعاً لْزَميلنا. ليش ما تقرالي ياهَا إِنْتَ بصوتك؟

فوجئت. أخذ قلبي يصفّق طرباً وبدأت أقرأ النصَّين.

«حاولت الشجرتان مراراً أن تتصافحا. لكنّ عمّال البلدية كانوا يقطعون الأغصان الممتدة عقاباً على هذا التجمُّع المريب. وعندما قرَّرت سجادة أسفلتية أن تمرّ من بينهما، جرت استعدادات واسعة لاستقبالها. لم يتعطَّل المنشار الجائع كثيراً في جسدَي الشجرتين حتّى سقطتا في عناق حارّ، ودارت أحاديث وَدودة حول مستقبل أصفر.»

«كان الخريف قد ارتدى المدينة موزّعاً الحزن بين أيّامها وشوارعها. أمّا هو فكان الخريف يزوره أربع مرّات كلّ عام. لكن ذلك الصباح بالذات شعر بأنّ الحزن يخترق كلّ شيء. حتّى طعم الشاي كان حزيناً. نظر إلى الساعة المصلوبة على أحد جدران غرفته: عقرب الساعات خامل كعادته وعقرب الثواني يدور ببلاهة. ترك ورقة صغيرة على مكتبه بعد أن كتب عليها: وداعاً، إنّها لعبة خاسرة! خرج إلى الشرفة وتطلّع إلى المدينة من ارتفاع شاهق. كان يعرف بأنّه لن يتمكّن من الطيران أبداً، لكنّ الرصيف قبل استقالته من الحياة.»

- اللّه، كُلّْش حِلْوة.. بَسْ كُلّْش حزينة! ليش كلّ هالحزن. كلّ كتابْتَك هيچي؟

- ما أدري. ما فكَّرِت بالموضوع!

- مُمْكِن تاخُذْ المجلة وتْخلّيها عِنْدَك مادام النص مالْتَك بيها.

- أكيد؟

- إِي!

- على شرط واحد؟

- شِنو؟

- أذفَعْلِچ سِعِرْها.

- لا ما يصير! هديّة منّي إِلك. إنتو الكتاب تحتاجون دعم مادّي. مو تمام؟

- ومعنويّ هَمّينه. ليش إِنتي تدعمين الكتاب؟

- وعندي مؤسسة.

قلتِها وأنتِ تضحكين من كلّ قلبك. ضحكت وكنت أهلّل في أعماقي، فها أنذا قد أصبحت في مدارك بعد أسابيع من الترقُّب. كان العميد قد انتهى من خطابه ودعا رئيس اتّحاد الطلبة المجاميع للتوجُّه إلى الباب الرئيسي لتلتقي، كالعادة، بأفواج الطلاّب من الكليات المجاورة لنا، الصيدلة والتربية واللغات.

قال الدفء في صوتك:

- الظاهر لازِم نِتْحَرَّك.

فمشينا سوية وتبادلنا الحديث عن الدراسة وعن الأدب. قلت إنّك تحبِّين الشعر، قديمه وحديثه. وسألتني عمّا يعجبني فقلت لك إنّي أحبّ الكثير، لكن ما خطر ببالي ساعتها كان المعلّقات وأبو نواس والسياب وأدونيس ومحمود درويش والجواهري ومظفّر. رفعت حاجبيك عندما ذكرت آخر اثنين.

بالتأكيد لأنّهما ممنوعان وإن بشكل غير رسميّ. قلت إنّك تعرفين الجواهري وأنّ «بابا» يعشق شعره وبأنّك تسمعين عن مظفّر ولكن لم تقرأي له أيّ شيء. وعدتك بأن أعيرك واحداً من شرائطه، فسألتني إذا كنت من الذين يتعاملون بالممنوعات. أجبتك إنّ الممنوعات حلوة، فضحكت. عندما وصلنا إلى الباب الرئيسي كان طلاّب الكليات الأخرى قد احتشدوا في الساحة الخارجية، التي تفصلها عن الشارع بوابتان وسور حديديّ. كانت البوابتان قد أُغلقتا لمنع الطلاب من «التسرّب». بدلاً من أن نسير إلى الجامعة المستنصرية التي تبعد حوالى الساعة مشياً، كان الرفاق قد قرّروا حشدنا في الساحة الخارجية بإغلاق البوابتين وتمّ إحضار كاميرات التلفزيون لتصوير الحشد وكانت اللافتات والرايات قد وزّعت. في المساء، كالعادة، تبثّ اللقطات مصوّرة التفاف الطلاب حول قيادتهم، وتُرسل الصور إلى العالم أجمع. . ويتسابق المحلّلون والخبراء في تفسير سرّ حبّنا للطغاة لشعوبهم المثقفة.

تأفّفتِ وقلتِ إنّك لا تحتملين وجود أكثر من شخصين في المتر المربع الواحد، فكيف الاختناق بين كلّ هؤلاء. وقلتِ إنّك ستحاولين الخروج.

- آني رخآحاوِل أطْلَع. رَحِتْظَل هنا؟

- لا، ليش شايفَتْني من هواة المظاهرات؟

- إِنْتَ؟ لا، واضِح لا! خَلّي نشوف إذا أكو طَلْعَة.

شققنا طريقنا وسط حشود الطلاب الذين بدا الضجر على الكثير منهم. وقبل أن نصل إلى الباب الرئيسي الذي يفضي إلى الشارع رأيت مجموعة من زملائنا يعودون. قال أحدهم:

- لا تَّعب نفسك، مَيْخلّون أحَّدْ يِطْلَع.

بدا الانزعاج عليكِ ونظرتِ إلى ساعتك فسألتك إذا كان عندكِ موعد، فأجبت إنّ عندك موعد مع طبيب العيون لتغيير العدسات اللاصقة، التي كانت قد أخذت تسبِّب لك حساسية.

- سلامْتِچ. يا ساعة الموعد؟

- بالوحدة.

- أكو وَگِت، ممكن تشرحين الموقف لواحد من الواگفين عالباب.

- يخَلّوني برأيك؟

- خَلّي نحاول.

فكّرت أنّ عينين كهاتين يجب أن لا تتعبهما أيّ عدسات لاصقة، وبأنّ الشركة التي صنعتها يجب أن توضع على اللائحة السوداء واقتنع أحد الرفاق بعذرك (أو ربما بعينيك) وحاولت أن اخرج معك، لكنّه أوقفني وقال: بَسْ هِيّ. ودعتّني بابتسامة واسعة، وقلت:

- يلله. أشوفك باچر!

- باي. شكراً عالمجلة.

- إِلعفو.

لوّحت بيدي وراقبتك وأنتِ تبتعدين نحو موقف السيّارات وعدت إلى الساحة وعملت مراجعة لكلّ التطوّرات وجرداً لما جرى فبدت فيه أرباحي كبيرة. كنتِ حسّاسة وذكية كما تصوَّرتك. أخذت أعيد قراءة النصَّين. تلذَّذت باسترجاع حوارنا وبعض اللَّحظات والعبارات الإيجابية والواعدة وخصوصاً: أشوفَكْ باچِر.

تنسل من بياض الورق شموس تمزّق عتمة هذا الليل وتذكِّر بمجرّة أخرى. لكنّها شموس محبوسة، هي الأخرى، خلف قضبان دونها قضبان. كأنّ السطور حبال أو أسلاك شائكة تجلس عليها الكلمات. الطيور خائفة مترقِّبة ماسورة صيّاد أو مجئ سجّان. هل تخرج من هنا وتعشعش على أغصان الآخرين وتطير في سماءاتهم؟ أم أنّها ستنقرض في هذا العفن أو تنتهي في معدة جرذ ضخم؟ أراها تصطفّ واحدة تلو الأخرى على السطر تنتظر. لكنّها تهرب كلّما مددت أصابعي المرتجفة. كلّ خطّ أو سطر مشروع قضيب.

استيقظت لأجد نفسي هنا(ك). تقرفصت أمام جدار هذا الكابوس الشاسع ووضعت أذني عليه. سمعت همهمة وأنيناً متقطعاً. ضربت الجدار بكلّ ما تبقّى لي من قوّة وصرخت بأعلى صوت: مَنْ هناك؟ وضعت أذني ثانية وسمعت الهمهمة والأنين. أنشبت أظافري في الجدار أحفره. أخذ فتات الكابوس يمتزج بدمي ولعابي ودموعي، شعرت بأنّ أظافري على وشك

أن تصل إلى فضاء آخر. سحبتها وضربت الجدار بقبضتي عدّة مرّات حتّى انفتحت كوّة تطلّ على... كابوس مجاور، فرأيتني أنا أجلس القرفصاء أمام جدار هذا الكابوس الشاسع وأضع أذني على الحائط و...

- إِي ليش مَتِجي وياتّي للكنيسة بَلْكي اللّه ينوِّرْلَك عقلك يا إِبني؟

- ما أريد بيبي. خَلّيني بْحالي اللّه يْخَلّيكي.

- هاي شصار تِحْكي كَنَّك عُمْرَك ميت سَنة. بَعَدَك جيهِلْ!

- أريد أروح لجهنم.

أين هي الآن؟ تصلي لفكرة كما تفعل كلّ يوم منذ نصف قرن. تركع أمام تمثال العذراء وتصلّي لها ولابنها المصلوب في وسط الكنيسة.

- وينَكْ مَتِقْعِد بالبيت؟ تِطْلَع الصُّبُح وترجع بالليل. وين تروح تِفْتَر بالشوارع والسْقافات؟ جا ويحد من المنظّمة هاليوم وسألني ليش مَكِنْ علَّقْنا صورة كبيرة مال الريّس عالحايط.

- أي وشْقِلْتيلو؟

- وِيحَد جيهل أصْغَرْ مِنّك مِيطْلَع عُمره عشرين سَني. قِلْتولو هيّانه السيّد الريّس جَوَّة المريمانة دَتْحُرْسه! كانت قد أصرّت على تعليق صورة كبيرة لمريم العذراء في غرفة الضيوف. كما أصرّت على وضع صورته تحتها على المنضدة. كانت دائماً تستأنس برأيي في ترتيب البيت، لكنّها لم تكن تأخذ

باقتراحاتي! قالت إنّ من الأفضل أن تكون هناك صورة صغيرة له لكي لا نعطي فرصة لأولاد الحرام أن يؤذونا.

- قَلّي «خالة حُطّولْكُم وِحْدة أكبر!»

- وبَسْ؟

- لا. كان قَياخِذ معلومات وسألني إذا أكو حزبيين بالبيت؟

- هوّه بَسْ أنا وإنتي بالبيت!

- أي، قلتولو إِبني، إِبن إِبني يعني، مَمِنْتِمي وآني عجوزة قابِلْ تريدني أروح اجتماعات آخر زماني؟

- وشْقال؟

- قال «خالة.. حُطّولكم طابوگة بهالبلد»!

- لا بلله! كان لازم تقِلّيلو الريّس يگول «كل العاملين الجيدين هم أبناء الثورة وهم بعثيون وإن لم يتموا».

- قلتولو إِحنة صار إِلنا آلاف السنين هوني. شِنو نحُط طابوگة؟

كانت دائمة الاعتزاز بأصولنا الكلدانية، وتغضب حين أحاول إقناعها بأنّنا، ثقافياً، عرب، أو معرّبون، على الأقلّ، ولسنا قومية منفصلة كالآثوريين أو الأرمن. وبأنّ كلّ ما يبقّى من الكلدانية هو اللغة التي تستعمل في القداس، أو التي يستخدمها الجيل السابق، والتي بتكلّمها هي مع أقربائنا من جيلها أو معي حين تغضب. وحتّى هذه أخذت تموت بين الجيل الجديد..

لكنّها كانت ترفض مناقشة الموضوع وتتّهمني بالتخلّي عن أصولي.

- اسْكِت! قِمِت تْخَرْبط! ليش يصير الويحد ينسى أصله؟

هنا...ك. هنا وهناك. هنا أو هناك. هناك هناك. هنا كهناك هناك كهنا...ك. الكاف حرف تشبيه.

تهبّ ذاكرتي عليَّ بضراوة وتقتلع الأسلاك الشائكة التي تفصل بين الهنا والهناك. تتطاير الحدود وعلامات الممنوع التي تطعن بشرتي ورأسي. تمرّ غيوم حمراء تطغى على الشمس الخانعة. يخرج من رأسي صبية يتضاحكون وهم يفتحون حقائبهم المدرسية ويمزّقون الكتب المحبوسة بداخلها. يحوّلون أوراقها طائرات ورقية. يكتبون جنونهم شعارات على جدران تمتدّ بكلّ اتّجاه. يمضي الماضي بسرعة نحو المضارع. يصطدمان. تسافر شظاياهما في كلّ اتّجاه. ثمّ أستيقظ لأجد نفسي هنا(ك).

كنّا نتسكّع قرب الجامعة في يوم خريفيّ حزين، وسألتك:

- شنو فَصْلِجْ المفضّل؟

- الخريف... وإِنت؟

- الفصل الأخير.

- شنو؟

قلتها باستغراب والتفتّ نحوي.

- إذا أكُلِجْ الخريف هَمّينَه رحِتْفَكرين إنه داأتْلَوّگْلج وما عندي شخصية!

- لا بلله؟ شِنو هالتواضع الزائف، منْ شوكت گُمِتْ تشك بشخصيتك؟ آخ منّك! مَتِشْبَع من المدح! عبالي خلّصْنَا من مرحلة المجاملات وإِنت على أساس من دعاة الصراحة وكسر الحدود.

بدأت أخاف أنّنا بدأنا نعرف بعضنا بعضاً أكثر من اللازم، وبأنّ مرحلة الهوس الجميل الذي تبدأ به كلّ علاقة قد بدأت تتلاشى. لكنّي كنت دائماً أعوّل على جنوني لمحاربة مشاكل كهذه.

- طبعاً، آني من دعاة كسر الحدود والقيود والوحدة والحرية والاشتراكية وقائمة المقبّلات الشهية والدفاع عن قضيتنا الأبية.

هززت رأسك ونظرت إلى الساعة التي كانت تخنق رسغك الأيمن، وقلت:

- تَرَه تأخّرْنا، بَس الظاهر إِنت مستعد للمحاضرة (مشيرة إلى سفسطتي).

- بالمناسبة، ليش تلبسين الساعة بإِيد اليمنة؟

- لإِنّه آني مو يسارية مثل حضرتك! إِسمع. خلص. لازم نلحّگ على محاضرة الثقافة. ماريد غياباتنا توصل للعشرة بالميّة. آخ منّك! جِنِتْ طالبة مواظبة إلى أن تعرّفت عليك!

- شنو ندمانة؟

- هاي شصار؟ ليش متتحمّل شَقة؟ صاير عندك مزاج تخريبي مؤخَّراً. . . وخرائي شوية.

- ماريد أروح لمحاضرة السخافة.[٣٧]

- لعد قابل آني أريد أروح؟ بس مو أحسن من ننفصل من الجامعة؟

كان علينا أن ندور حول الحديقة ذات الأسوار العالية لكي نصل إلى الكلية. وكان بابها مفتوحاً، على غير عادته. كنت دائماً أتساءل عمّا تخبّئه هذه الحديقة المغلقة التي يقول الناس إنّها حديقة. كان أحد جدرانها هو المرتفع الذي تمرّ عليه سكّة القطار. أمّا الجدران الثلاثة الأخرى فكانت من الطابوق والاسمنت وعالية بحيث لا يتسنّى لأحد أن يرى ما تخبّئه. حاولت ذات مرّة وأنا أنتظر الحافلة أن أتسلّق المرتفع لأطلّ على الحديقة من سكّة القطار، لكنّي وجدت سوراً يمنع من الوصول إلى السكّة.

- نِگْدَر نْلَحّگ. إذا رِحْنا بخط مستقيم نوصل بعَشْر دقايق أو ربع ساعة. خلّي ندخل مِنّا.

وأشرتُ إلى باب الحديقة ووافقتِ.

عبرنا ممرّاً محاطاً بالأشجار ثمّ واجهنا منظر غير متوقَّع.

---

(٣٧) الثقافة القومية.

كانت الحديقة عبارة عن مقبرة مكوَّنة من مئات الشواهد البيضاء موزَّعة بصفوف متوازية ترقد على حشيش أخضر مقصوص بعناية. كان كلّ شاهد يحمل اسماً مكتوباً بالانگليزية مسبوقاً برتبة عسكرية وسنين الولادة والموت مع عبارات مثل Rest in Peace وGone But Not Forgotten.[٣٨] كان من الواضح من التواريخ أنّها للجنود البريطانيّين الذين ماتوا أثناء الغزو البريطانيّ للعراق في ١٩١٧-١٩١٩. كانت القبور التي أخذنا نخترقها باتّجاه شارع الكلية مرصوفة بحسب تسلسل الرتب العسكرية.

- شوف هناك!

أشرتِ إلى الزاوية اليسرى للمقبرة حيث كان يجثم نصب صغير من الرخام بدا أنّه لقائد الوحدة.

- تدرين صارلي تلَث سنين أمر من يم هالمكان كلّ يوم ومَتْصوّرت أبداً يكون أكو مقبرة بيها جنود إنگليز!

- تعتقد لهالسبب حاطّين هالسياج العالي حتّى مَحد يشوف؟

- ما أدري. شْرَخْيصير يعني؟

- موخَلَّصْنَه من الإنگليز من زمان.

- تمام، بس شكل السياج مبني من الأربعينات أو الخمسينيات. أكيد چانَوْ يخافون من المظاهرات وأيّامها

---

(٣٨) «ارقد بسلام» و «رحل ولكن لن ينسى».

الحكومات والإنگليز «طيزين بفد لباس».

- إِي بس هَسَّه راح زمن الإنگليز وصار زمن الأمريكان والأمريكان مراح يحتلّونا!

وضحكنا. ثمّ أشرتِ إلى الباب الذي يؤدّي إلى شارع الكلية.

- يلله بسرعة.

ثمّ أضفتِ:

- شوف أعمارهم خطية: ١٨ و ١٩، حرام!

- تتعاطفين ويّ المحتلّين يا خائنة! هذوله كِتلونا واستَغَلّوْ ثَرْواتْنَا!

- لا، جدّيات! موحرام!

صرخ رجل خرج من كشك صغير في إحدى زوايا المقبرة لم نكن قد لاحظناه:

- هاي شْدَتْسَوّون هنا، ممنوع ممنوع!

كانت «ممنوع» الكلمة الأكثر استعمالاً في البلد، وخصوصاً لأولئك الذين كانوا يتمتَّعون بشيء من السلطة أو يظنّون أنّهم يمتلكونها. هذا الرجل كان يحمي إمبراطوريته الصغيرة: بقايا الذين حاربوا لإمبراطورية سابقة.

سألتُه بتحدٍّ:

- ليش ممنوع؟

- هاي گبور.. حرام!

- شنو رَخْنبوگها يعني؟

- يا إبني آني داأسوّي شُغْلي وآني عبد المأمور.

سألتِهِ أنتِ بنغمة أقلّ عدائية:

- إنت تشتغل هنا عمّو؟

- إي، آني البِسْتَنْچي عمّو.

- ومنو ييجي هنا؟

- السفراء مرّات ويجيبون ورد ومَزيقة.

- يا سفراء؟

سألته أنا.

- أستراليا، إنكلترا، كندا. . . شْمَدريني!

كنّا قد قطعنا نصف المقبرة تقريباً، فطلبنا منه أن يفتح لنا الباب لكي نخرج. وافق وبدأ يمشي معنا نحوه وتوسّل قائلاً:

- بس اللّه يخلّيكم لا تسَوّوهه مرّة لاخ وتسوّولي مشكلة! چان لازم أسِدْ الباب زين.

فحاولت بعث شيء من الطمأنينة في قلبه:

- لَتخافْ عَمّو بعد مَنسوّيها!

وأغلق الباب الحديديّ وراءنا بإحكام بعد أن شكرناه.

- تدرين آني أحبّ المقابر؟

- مَگِلِتْلي من قبل بس مستغربة.

كنت مهووساً بفكرة الموت وسألتكِ بجدية.

- تعتقدين إِنّه بيوم القيامة هذوله الجنود رحيُحاسَبون وَيَّ الوحدة مالتهم لو ويّ عوائلهم؟ شنو ترتيب الانتماء يعني؟

- خوش سؤال وماعندي جواب. عبالي إِنت متآمِن بيوم القيامة؟

- لا، بس كفكرة يعني.

- ما أدري وميهمني هَسّه.. اللّي يهمني هو إِنّه ألحگ عالمحاضرة. تدري أبويه يِتْخَبَّل إذا عرف إِنّه انفصلت من الغيابات؟

- ها، أها! جاوبتيني على سؤالي. العائلة، كمؤسسة، أقوى من كلّ جيوش العالم.

- يمكن مو للجنود الإنگليز، بس لَمرَة بمُجْتَمَعْنا، إي، للأسف!

- زين تعتقدين إذا طلع أكو يوم قيامة رحنكون سُوِيّة؟

- لَتْخاف، رحأدوّر عليك.

- يجوز لجنة الأخلاق تستدعينا إذا عُرْفَوْ بالفواحش اللّي اقترفناها بدون موافقات أو تصريحات اجتماعية ودينية؟

- أكيد، بس أكيد همّينَه أكو بيروقراطية وواسطات ونگدر نِرْشيهُمْ!

- بلكي تنامين وِيّ واحد من الملائكة حتى يمسح أسامينا من السجلات ويُطْمُغِلْنا أرواحنه «جنة»؟

- وإذا الملاك يدوِّر وِلد تقبل حضرتك تنام وياه؟

سألتِني ضاحكة.

- لازم أفكّر بالموضوع!

- لازم تفكّر؟ لَعَدْ وين نسويتك وراديكاليتك؟ آني، ميخالف تستعمل جسدي لخلاصنه، بس جسدك لا؟

- حبيبتي، التحرُّر من العقد الاجتماعية يِنْراذلَه وَكِت. مستعدّ أركبه إذا هو يريد، بس ما مستعد يركبني.

- ينرادلك وكت؟ بَعَد وَكِتْ! بعد چَمْ سنة تكبر وتصير محافظ وترجع ليورا. حالك مثل حال البقية. شعارات وحچي وبس. يلّله يمكن الملاك يكون كُلِّش رقيق وياك ومَيْوَجْعَك.

- وأخذت أفكِّر بصورتي وأنا أمتطي ملاكاً من الملائكة وهو يطير بي في رحاب الجنة!

اقتربنا من جدارية القاعد(٣٩) التي نصبت أمام المنظمة الحزبية، كان هناك شابان يحملان رشاشتين يحرسان المدخل، والقاعد يرتدي نظارات شمسية ويلوِّح لجمع غفير على الجانب الأيسر من الجدارية، أبقى الرسّام وجوههم ضبابية. وتذكَّرت ما حصل معنا هنا قبلها. كانت هناك حديقة مصغّرة مزروعة تحت الجدارية وبها ورود حمراء وصفراء. وأبديت أنت إعجابكِ بواحدة منها، فقلت لك:

---

(٣٩) القائد.

- رحاگطعهَا.

- لا، مَيْخالف، جَوّة الجدارية.

- يلّله ماكو أحد.

كان الصرصاران في الداخل يومها. وأسرعت لأقطف الوردة، وبعد أن عدت إليكِ وكنت تنتظرينني على الرصيف، سمعت صوتاً خلفي يصرخ:

- هاي شْدَتْسَوّي؟

كان بعمري وبعينين قهوائيتين غائرتين في وجهه المستطيل. وقبل أن أعثر على إجابة، قال بلهجة أكثر حزماً كأنّه لقفنا بالجرم المشهود:

- تعال. هاي ليش سويتها؟

أسرعتِ محاولة إنقاذ الموقف:

- آني گِلتْلَه.

- شِنو فاتحين مشتل إِخْنَا؟ هاي للجدارية مو للرايح والجاي، إذا تريدون رومانسيات روحو اشترو ورد من المحلات!

يبدو أنّ الرفيق لم يكن على علم بأزمة الورود الطبيعية وأسعارها الفاحشة.

قلتُ له بشيء من الكبرياء:

- مَچِنِتْ أدري ممنوع.

وأضفتِ أنت:

- موصوچه، صوچي آني اللّي طِلَبِت مِنّه، سامِحْنا أخويَه!

صمت لثوان ثمّ أضاف كأستاذ يوبِّخ أطفالاً:

- يلله، بس لا تسوّوها مرّة ثانية! خومو أطفال إنتو، طلاّب جامعة ومثقفين... المفروض تكونون قدوة!

شكرته على «عطفه» وسحبتِني بعيداً من ذراعي. اتَّهمتِني بالرعونة وبإدخالنا في مواقف سخيفة في محاولة لإثبات أشياء أسخف. أعجبني هدوؤك وحكمتك. كنت مكسور الخاطر وحاولت أن تفرفشيني قائلة إنّك ستحتفظين بالوردة إلى الأبد:

- هاذي أخطر وردة تِجيني.

قلت إنّ الموقف ذكّرك بفلم الكارتون الروسيّ الذي كان التلفزيون يعيده كثيراً، والذي يحاول البطل فيه أن يحصل على جوهرة لحبيبته من بين عينيّ التنين النائم. لكنّ الفرق كما قلت لك أنّ البطل يقطِّع التنين إرباً في الكارتون، أمّا في الحياة، فإنّ كرامتنا تهشّمت وظلّ التنين نائماً بينما كلابه تعوي علينا.

قطعت استذكاراتي متسائلةً عمّا أفكّر به، فقلت لك:

- الورود.

- يا ورود؟

- تذكّرت مهزلة الورد... گدام المنظمة.

- يلّله. هَمْ زين بعد ماكو ورود.

- بالمناسبة، عرفت ليش أستاذ السخافة[٤٠] طرد الطالبة قبل چَمْ أسبوع.

- وشلون تْوصّلت لهالاكتشاف؟

- متريدين تعرفين الاكتشاف أوّل؟

- بلي، بس أريد أعرف شلون هَمّينه.

- يلّله أنطيچ ثلث ساعة تخمّنين وإذا مَعُرَفْتي، أگُلّچ.

والجواب إجاني من الشعر. الشعر يجاوب على كلّ الأسئلة.

- إِنت ملك التناقضات، هذاك اليوم گلتلي الشعر يطرح كلّ أسئلة الكون.

غيّرت رأيي. المهمّ. فكّري! ليش الأستاذ طرد طالبة چانت حاطّة وردة حمرة بقميصها؟

- تتذكّر فكّرنا يومها هوايه ومَلگينا جواب.

كانت مادة السخافة[٤١] هي المادة الوحيدة التي يجب على أيّ طالب أو طالبة جامعية أن يدرسها، سواء كان يتخصّص في الأدب الروسيّ أو الطب البيطريّ أو الهندسة المعمارية. كانت الشّعَب تُجمع في قاعة كبيرة لمحاضرة أسبوعية مدّتها ساعتان. في السنتين الأولين درسنا أيديولوجية العبث وتنظيرات ميشيل عفلق وإلياس فرح. ثمّ، باستمرار الحرب، أصبحت خطابات

---

(٤٠) الثقافة.

(٤١) الثقافة.

القاعد وأحاديثه التي كانت تطبع في كتيِّبات جزءاً من المنهاج وكان علينا متابعتها على التلفزيون. كنّا غالباً ما نجلس في مؤخّرة القاعة ونتبادل الرسائل أو نقرأ. خصوصاً هذه السنة، لأنّ الأستاذ لم يكن يطرح أيّة أسئلة على الطلاّب، بل كان يفضّل التنظير. ومع ذلك، فقد كان لطيفاً مقارنة بالأستاذ الذي درّسنا في العام الماضي. كان يعرّج على بعض المواضيع على الساحة الدولية وكان دمه خفيفاً. لذلك استغربنا عندما انفجر غاضباً قبل أسبوعين بوجه طالبة، كانت تجلس في الصفّ الأول وأمرها بالخروج من القاعة وبالتخلُّص من الوردة الحمراء التي كانت قد شبكتها في ياقة قميصها.

- هاي شنو؟ گومي طِلْعي برّا. گاعدة وفرحانة بالوردة الحمرة مالتهه!

أسرعت الطالبة وهي تمسح دموعها أمام أكثر من مئتي طالب وطالبة. ورأيناه يومها يتكلّم معها بعد المحاضرة بهدوء.

- يمكن چان ثور بحياة سابقة ويتْنَرْفز من اللَّون الأحمر!؟

سألتِني ضاحكة.

- لا.

- ما أدري لَعَد. گُلّي إِنت لأنّه رَخْنوصل للمحاضرة بعد شوية.

البارحة چنت داأقره ديوان الجواهري وشفت قصيدة إِسمها «سلاماً» ألقاها باحتفال ذكرى تأسيس الحزب الشيوعيّ بـ ٣١

آذار. اليوم اللّي الأستاذ طرد البنية چان. . . ٣١ آذار.

- ها؟. . . بس شِنو ذنب الطالبة خطيّة؟ لهالدّرجة بعدهم يخافون من الحزب الشيوعيَ؟ هو إِشْبُقَه مِنّه داخل البلد؟ وخفضت صوتها حين تفوَّهت بآخر عبارتين. وأكيد المسكينة مَچانت تعرف. ومنّو بجيلنا يعرف شي عن الحزب الشيوعيّ غير إِنّو همّ خونة. آني بس أتذكّر العشرين ضابط اللِّي إِنعدمو بنهاية السبعينيات.

- تمام، بس هُوَّ أكيد خاف إِنّه إذا ميگللها تشيل الوردة يكتبون عليه تقرير أو شي. فرصة لواحد من الجماعة حتّى يثبت إنّه هو العين الساهرة والأستاذ مقصّر!

كنّا قد أصبحنا داخل أروقة الكلية واستدرنا يساراً بعد الباب الرئيسيّ باتّجاه قاعة الفراهيدي. لم يكن الأستاذ قد وصل بعد. بعد أن وجدنا رحلتين متجاورتين في الخلف، كما كنّا نفعل دائماً، كتبت لك القصيدة التي كنت قد حفظتها لاشعورياً على ورق كتاب «الشيخ والبحر»[٤٢] الذي كنّا نقرأه لصفّ آخر. ما زالت ناصعة في ذاكرتي إلى اليوم:

«سلاماً ومنذ العصور الخوالي

مذ اخضر حقل بسمر الغلال

ومذ حكّمت سادة في الموالي

---

(٤٢) رواية لكاتب أمريكي.

Twitter: @ketab_n

تنسّمت الأرض ريح النضال

زهت بالشريد رؤوس الجبال

وتاه الثرى بالدماء الغوالي

ودُقّت مسامير خجلى عطاشى

بكفّ المسيح فطارت رشاشا

بقايا دم للعصور التوالي

تخضّب بالمجد هام الرجال

سلاماً ودوّى صراع عنيد

فيه السادة استبسلت والعبيد

سلاماً وراحت تصبّ القيود

ويحمرّ فرط الحياء الحديد

وتفرى لتغدو سياطاً جلود

ويطرق في الغاب خزيان عود

تحثّ المشانق منها اعتسافا

تدلى عليهنّ هيفا لطافا

من الصيد في كل صبح قدود

بهنّ من الفجر يخزى عمود

سلاماً وألقى النضال الرحالا

بأرضٍ بها الدم يسقي الرمالا

بحيث تجد الرياح انتقالا

تهزّ الجنوب وتزكي الشمالا

وحيث تحبّ الحياة الجدالا

يصارع فيها الحقيق الخيالا

سلاماً وفي دجلة والفرات

مخاض الصعاليك مهوى الشراة

أناخ النضال يجر النضالا

ويبدّل ما استطاع بالحال حالا»[٤٣]

كان الحزب الشيوعيّ قد ذبح منذ سنين طويلة. جدع أنفه وسملت عيونه وقطّع إرباً إرباً وترك يتفسّخ في السجون والمنافي. طبعاً كان هناك من كان من الخسة أو من الضعف بأن يفضّل الالتحاق بمهرجان البعبصة الطويل والالتحام به. لم تكن ذكرى التأسيس إلاّ قبراً على وجه التاريخ. لكن حتّى وردة حمراء، وضعت بالخطأ على قبر الحزب في ذكراه، كانت كافية كي تثير الرعب في أوصالهم.

الشيوعيّ الوحيد في عائلتنا كان ابن خالة والدي، إلياس. لكنّه كان من جماعة «تيتو» حسبما سمعت في صغري، وكان مسؤول منطقة بغداد بأكملها. أمضى عدداً من السنين في السجن. وحتّى بعد خروجه ظلّ تحت المراقبة لسنة أو أكثر.

---

(٤٣) وجدت القصيدة في ديوان الشاعر كما هي مضافة إليها أبيات لم ترد في المخطوطة.

أذكر بأنّه عندما جاءنا في عيد الفصح ذات مرّة لمعايدتنا قصّ علينا وهو يأكل قطع مربّى الطرِنج الصغيرة التي اعتدنا تقديمها في العيد، والتي كانت جدتي تتفنَّن في عملها، قصّ حكاية رجل الأمن الذي كان يتبعه على دراجة نارية أينما ذهب بعد خروجه من السجن لعام بأكمله، وكيف أنّه دعاه ذات يوم ليتناول العشاء معه لأنّه أحسّ بوطأة المهمة عليه وبابتعاده عن أهله! كان هذا قبل سنوات. أما اليوم فيفضِّلون استضافة المشتبه فيهم بدلاً من أن يتعبوا أنفسهم بملاحقتهم!

كنت أستلقي عارياً على ظهري فوق حبّات الرمل البيضاء تحت سماء حالكة. اختبأ القمر خلف سحب سوداء بدأت تنثّ مطراً حبريّ اللّون. شعرت بقطراته الباردة تنقّط جسدي ومسحت واحدة سقطت على جبيني وأخرى كانت قد استقرّت على صدري. اسودّت أصابعي ثمّ تناهى إلى سمعي عواء ونباح من اليسار. نهضت ونظرت حولي، لكنّي لم أر شيئاً غير المطر الحبريّ يرقّط الرمل الأبيض وقد تسارع إيقاع هطوله. خيِّل إليّ أنّ العواء المختلط بالنباح وبأصوات بدت كأنّها زمجرة دراجات نارية أو سيّارات أخذ يقترب أكثر فأكثر. هاجمني الخوف وبدأت أركض بسرعة بالاتّجاه المعاكس. تحوّل نثيث المطر إلى زخّات وأخذ يتجمّع في بحيرات صغيرة، كنتُ أتعثّر وأتزحلق بها وأنا أركض بكلِّ ما أوتيت من قوّة. سقطتّ فلطّخ الرمل المختلط بالمطر الأسود وجهي وصدري وذراعيّ وفخذيّ

وركبتيّ. مسحت وجهي ونهضت وواصلت الركض بعيداً عن العواء وهدير المحرّكات. كنت ألتفت بين الحين والآخر بحثاً عن مصدر الأصوات، فأرى آثار قدميّ واضحة خلفي على الرمال البيضاء. فكّرت أن ألطّخ نفسي كلّياً بالرمل والمطر الأسود وأختبئ متقرفصاً أو أن أدفن نفسي تحت الرمل. لكنّ الكلاب التي اقترب عواؤها ونباحها بسرعة ستشمّ رائحتي حتماً وتعثر عليّ لتنهشني. ركضت وركضت حتّى هدّني التعب وسقطت في بقعة موحلة. اقترب العواء والنباح أكثر فأكثر. مسحت الرمل والمطر عن وجهي وفمي وأنا ألهث. سكت صوت المحرّكات وسمعت صوت أبواب سيّارات تفتح وتقفل بقوّة ووقع خطوات. بزغت، فجأةً، عشرات الأضواء القوية الصادرة من مصابيح يدوية كان يوجّهها رجال بدا أنّهم يقودون الكلاب المسعورة. واصلت الركض ثانية بين قضبان الضوء وأنا أسمع وقع أقدامهم وقد بدأوا يركضون ورائي. بعد قليل تمكّن منّي التعب والبرد والرمل الموحل فسقطت مرّة أخرى. كانت قضبان الضوء المتوازية قد أضاءت الصحراء كلّها على امتداد البصر. توقّف الرجال وأطلقوا العنان لكلابهم التي أسرعت نحوي بالعشرات. كانت تركض بموازاة قضبان الضوء المعمي الذي وجّهه الرجال من مصابيحهم اليدوية. حاولت النهوض مرّة أخرى والركض، لكنّني أحسست بألم لا يطاق في قدمي ورأسي. تعثّرت مرّة أخرى وبدأت أزحف على أربع. شعرت

بأنّي حيوان على وشك الانقراض. أدركت من نباح الكلاب بأنّها أصبحت قاب قوسين أو أدنى. التفتّ لأجد أن واحداً منها كان على وشك الوثوب عليّ. لمعت أنيابه ورأيت لثته الوردية ذات الحواف السوداء. أخفيت رأسي بين يديّ. ثمّ فتحت عينيّ لأجد الأوراق البيضاء وسطورها الممتدة ترقد بجانب رأسي.

هل أكتب؟

كنت دائم الترديد لشعر الجواهري وأنا مع أريج، حتّى تعجّبت لكثر ما كنت قد حفظت من شعره.. وقالت إنّه لو يدري بما أردّده عنه لعيّنني مديراً لعلاقاته العامة. وذات يوم قالت لي إنّ لديها مفاجأة سارة. كان أبوها قد حصل على تسجيل ڤيديو للقاء مع الجواهري من تلفزيون أبو ظبي.

- تريد نشوفه؟

- يا ريت.

- نِگْدَر نروح للبيت هَسَّة هَمْ ناكُل فَدْ شي وهَمْ نْشوفه ونرجع على محاضرة الفرنسي عالأربعة.

- والأهل؟

- ماكو أحد بالبيت. ماما بالدوام وبابا مسافر.

- لعد مو السفر ممنوع؟ شنو واسطة؟

- عنده موافقة. رايح مؤتمر بإيطاليا. وحتّى لو موجودين بالبيت، تَرَه هُمَّ منفتحين. شنو خايف؟

وضحكت.

- إلويش أخاف؟ خايِف عليچ وعلى سُمُعْتِچ.

- خاف على نفسك أحسن!

- عَفْية بالسبَاعية.

- تحب الباذنجان. عِدنَا تَبْسي من البارحة؟

- أوّل مرّة أجي لبيتكم وتطَعْميني أكِل بايت؟

- عيني لو أدري چان ذِبَحِتْلَكْ خروف. يلّله... الجايات أكثر من الرايحات. سامحني هالمرّة.

لم نتكلّم كثيراً في الطريق إلى بيت أهلها الذي كان في الكاظمية. كأنّنا كنّا نفكّر باحتمالات ما سيحدث! أو ربّما كان ذلك بتأثير الموسيقى الحالمة الحزينة التي وضعتها هي. كانت تحبّ ليليّات شوبان كثيراً. سألتها عن العين الشذريّة التي كانت تتدلّى من المرآة. فقالت إنّها تضعها لأسباب جماية فقط وبأنّها لا تؤمن بهذه الأشياء، واتّهمتني بأنّي دائم البحث عن أشياء أنتقدها. فنصحتها بأن تعاون مع جدّتي في تكوين جبهة ضدّي.. وضحكنا. كان الطريق إلى البيت يمرّ بمنطقة شعبية فقيرة تملأها بيوت صغيرة، لكنّ الشريط الذي يطلّ على دجلة كان معظمه بيوت كبيرة يدلّ مظهرها على الغنى وبعض الحسّ الجمالي، الذي كانت تفتقده بيوت حديثي النعمة الذين طفوا على السطح في سنين الحرب. مررنا بأطفال يلعبون الكرة وقد تركوا حقائبهم المدرسية مبعثرة على الأرض. لوّحت لهم هي مبتسمة وركضوا وراء السيّارة لعدّة أمتار صارخين ومتضاحكين.

تحوّل الطريق المعبّد إلى شارع ترابيّ متعرّج ينتهي أمام باب حديديّ. عرضت أن أنزل وأفتحه ووافقت بابتسامة و«شگد حبّاب إِنت!» فتحت الباب ووقفت إلى اليمين وأدخلت السيّارة إلى الگاراج وأوقفتْها أمام شبّاك المطبخ. دخلنا من باب المطبخ الذي توسّطته مائدة سوداء وأربعة كراس. وضعت كتبها ومفتاح السيّارة عليها.

- إِتْفضّل. تريد ناكل أوّل لو نتفرّج وبعدين ناكل؟

- بْكيفِچ.

- ناكل ونتفرج أحْسن! خلّي أحَمّي الأكل وإِتْفضّل أُخُذْ راحْتَكْ بالصالون تفرَّج عالكُتُب واللوحات أو إِطْلع بالحديقة، أدري إنت تحب النهر هواية!

- متحتاجين مساعدة؟

- لا، تِسْلَم.

كان هناك ممرّ يربط المطبخ بغرفة المعيشة التي كانت تنفتح على غرفة الضيوف. غطّت الجدران لوحات لفنانين مشهورين مثل علي طالب وليلى العطّار وفائق حسن. وكان واحد منها عبارة عن رفوف كتب تغطّي الجدار بأكمله. أخذت أتطلّع إلى العناوين. الكثير من الكتب عن المعمار وتاريخ العمارة الإسلامية والغربية بالعربية والإنكليزية والفرنسية. أمّهات الشعر العربيّ القديم... المعلّقات والحماسة والمفضّليات. إرشاد الأريب ومعجم البلدان والأغاني... ديوان المتنبّي... أبو

نواس... رأيت باباً زجاجياً يطلّ على الحديقة. فتحته وخرجت وأغلقته ورائي. على اليمين كانت هناك أرجوحة بيضاء وطاولة حديدية مع كراس بيضاء تجلس على حشيش مقصوص بعناية يحتضنه شريط ورود على جانبي الحديقة. مشيت باتّجاه النهر، ونزلت السلّم الحديديّ الحلزونيّ الذي كان ينزل من الحديقة نحو النهر. كان دجلة يجري هادئاً غير آبه بالعبث والموت على شاطئيه أو بالقصور التي أخذت تطعن ضفتيه. طبعاً لم تكن هناك زوارق تسبح فيه. كان قد صدر منذ سنين قرار بمنع الملاحة النهرية. السبب غير المعلن هو أنّ قصور القاعد[٤٤] والماشية[٤٥] كانت قد أخذت تخنق ضفّة النهر. كان المرء يشاهد أحياناً زورق صيد أو ما شابه فقط. انحنيت لأداعب النهر وكان الماء بارداً. فكّرت أنّ القطرة التي في يدي قد تكون من ثلوج جبال تركيا أو من غيمة أنهت وجودها فوق جبال كردستان. أعدت توجيه سؤال السيّاب لبويب إلى دجلة: أغابة من الدموعِ أنت أم نهر؟

سمعت صوتها تناديني من الداخل فعدت. جلسنا على كنبة أمام التلفزيون نأكل ونشاهد اللقاء. تكلّم الجواهري عن طفولته في النجف وعن النظام القاسي الذي خضع له وكيف حفظ آلاف الأبيات قبل أن يتعدّى الخامسة عشرة. كان هناك تعتيم غير

---

(٤٤) القائد.

(٤٥) الحاشية.

معلن عليه بسبب موقفه من الحرب. ما كان بإمكانهم أن يحذفوا قصائده الخالدة من الكتب المدرسية مثل «يا دجلة الخير» و«سلاماً على حاقد ثائر» لكنّ اسمه لم يكن يرد على لسان أحد أبداً منذ أن ترك البلاد في ١٩٨٠. كانت بعض قصائده تصل مهرّبة على شرائط الكاسيت التي كنّا نتبادلها سراً. تكلّم على صعوبة الغربة في براغ، وكيف انقلب الوضع لاحقاً ليصبح المنفى هو الوطن. قال إنّ كتبه المفضّلة والتي يعود إليها دائماً هي دواوين المتنبّي والبحتري وأمالي أبي عليّ القالي ونهج البلاغة. تكلّم على قصيدته المفضّلة، المقصورة، التي لو احترق كلّ ما كتبه وبقيت هي وحدها، لما ندم. وأنهى اللقاء بقصيدة غزلية ليثبت بأنّه غزير حتّى في العشق!

كنت قد وضعت يدي على يدكِ ونحن نشاهد اللقاء وأمسكتها أنتِ بحرارة. تغلغل عطرك في مساماتي وهاجر في شراييني. وعندما انتهى اللقاء نهضتِ لتخرجي الشريط من جهاز الفيديو وتغلقي التلفزيون. سألتني إن كان قد أعجبني.. وعندما تيقنتِ من سعادتي بمشاهدته وعدتِ بعمل نسخة لي لأحتفظ بها. عدتِ وجلستِ بجانبي ثانية. جلسنا قبالة بعضنا بعضاً. أعدت خصلة كانت تغطي عينك اليمنى بيدك وراء أذنك. أسندتِ رأسك إلى الكنبة فالتمع الزغب على رقبتك. أثنيت ركبتك قليلاً على الكنبة. ابتسمتِ:

- تريد چاي؟

- لا . . . شكراً.

- شِتْريد لَعَذْ؟

- هواية!

- شنو مثلاً؟

- لا أريد أبوسِچْ!

ابتسمتِ أنتِ أيضاً وقرّبْتِ وجهك منّي بعض الشيء. كانت ابتسامة النعناع في عينيكِ تشجّعني على المضيَ. وضعت سبابتي على خدّك الأيسر وطبعت قبلة خفيفة على فمك. ثمّ أردفتها بأخرى أطول وأنا أطوّقك بذراعيّ. تسلّلت شفتك السفلى بين شفتيّ وتريَّثت قليلاً قبل أن تنسلّ برغم تشبُّث شفتيّ بها. زحفت شفتاي على حرارة خدّك ثمّ رقبتك وشحمة الأذن. عضضتها برفق فضحكتِ وأطلقت سراح آهة مكتومة. نزلت إلى رقبتك ثانية ثمّ أعلى العنق والصدر أزرع قبلات صغيرة. وعندما مددت يدي لأفتح زرّ قميصك أمسكتِ بيدي. ظننت أنّكِ قد توقفينني، لكنَّكِ سحبتِ يدي وأنتِ تنهضين من الكنبة قائلة:

- تعال!

أخذتني إلى ممرّ يؤدّي إلى جزء آخر من البيت. كنت سأدخل أوّل باب واجهنا على اليمين. لكنَّكِ سحبتني بقوّة وابتسمتِ:

- لا! هاي غرفة أهلي!

- مَيْخالف. أحسن!

- أدَبْسِز!

ضحكتِ بغنج.

كانت غرفتكِ الأخيرة في الممرّ. أغلقتِ الستائر. جرّدنا بعضنا بعضاً من الملابس ونحن منهمكان في قبلة طويلة. أحسست ببرودة راحتيك على ظهري. مرّغت فمي بين نهديك وبدأت ألثمهما. كانا صلبين وأكبر قليلاً ممّا تصوّرت. قبّلت حلمتك اليسرى وعضضتها برفق. فانتفضتِ وشددتِ شعر رأسي متأوّهة. زحف لساني إلى حلمتك اليمنى، ثمّ عدت إلى اليسرى ثانية أدور حولها بلساني وأعصر نهدك الأيمن بيدي.

سألتِني، من بين الأنفاس الحارّة، لماذا كنت أقبّل حلمتك اليسرى أكثر من اليمنى، فلم أجد جواباً.

- شنو عندك عقد أوديبية؟

- عندي عقد بعد ما اكتِشفوهَا.

ضحكتِ وسحبتِني إلى السرير. نمتِ تحتي وأخذت أقبّل ما بين النهدين، ثمّ هبطت ببطء نحو سرّتك وداعبتها بلساني. ضحكت:

- لا. أتدغدغ!

واصلت الهبوط نحو الدلتا، لكنّك أمسكتِ بيدي ورفعتني إليكِ. تبادلنا قبلة عميقة شعرت بحرارتها تغزو عظامي. ثمّ دفعتني إلى اليمين وأصبحت على ظهري وأنت فوقي. أمسكتِ

بيديّ وثبتّهما إلى جانبيّ وعانق فخذاك جسدي. تدلّى نهداك كعنقودين وابتسمت حلمتاكِ على خديّ. التحمنا في إيقاع تسارعت وتيرته حتّى امتزجت براكيننا وعرقنا.

استيقظت لأجد نفسي هنا(ك). بياض الورق يغويني بحرية التسكُّع في عزلتي. سأهشّم سطح الصمت بهذياني. قد تتحوَّل الكلمات إلى كائنات خرافية تحفر نفقاً إلى الهناك أو مواشير أعلّقها حولي لأطلّ على شيء ما.

رسمت بخوف علامة استفهام وبقيت أنظر إليها لساعات، وكانت هي أيضاً تبادلني النظرات. ثمّ وقفتْ فجأةً على نقطتها وانتفضت قائلة:

لقد وهبتك نفسي فخذني واصنع بي ما شئت! سأكون منجلاً تحصد به الشكّ الذي ينخرك. أو ازرعني أينما وكيفما شئت وسأحميك منهم! أمسكت بها من خاصرتها فإذا بها طيّعة كالصلصال. قلّبتها رأساً على عقب. سويت انحناءة خصرها وحوّلت نقطتها همزة، فصارت كافاً.

ك ت ب... كتب، كثب، كبت، كثب، كيت. كنب، كنت، كتّب، كتب، استكتب. أكتب. أكتبوا.. أكتبوا بلا تخوُّف ولا تردُّد...

لماذا أكتب؟ لماذا لا أكتب؟ أكتُب أم أُكتَب؟ بيكيت أيضاً يكتبني الآن. هل أدخلوني هنا لأن أحدهم كتب عنّي؟ سأفقأ عين، وحتّى غين، من يحاول قراءتي!

كتبوني إلى هنا أو كتبت نفسي وسأكتب جروحي.[٤٦]

أتعثَّر[٤٧] في ظلام ما جرى. يتقوّس ظهري. أنحني مثل علامة استفهام لألتقط نثاري وأسترجع دخولي هذا النفق المظلم. «رَحيذِبّوك جَوّة». صدقت يا علي. «لَتْصير زمال وسِدْ حَلْگك تَرَه يْگعْدوك عالبُطَل». لم يكن «بُطُل عَمْبَة» كما تصوَّرت!

- لتطوّل لْسينَك يا إبني!!!

ذهبت لأشتري الجرائد كعادتي وشاهدت عدداً جديداً من مجلة «اليوم السابع»، وكنت قد أرسلت لهم نصاً كنت أترقَّب نشره. فأخذت نسخة منها وحين أعطيت النقود لصاحب الكشك طلب المزيد. عندما استفسرت عن السبب قال لي إنّ هناك كتيّباً يباع معها. ففتحتها ووجدت في وسطها كتيّب «خطاب الرئيس القائد عن تحويل العمّال إلى موظفين».

- بَسْ ماريدَه.

- إذا تريد اليوم السابع لازِم تِشْتِريه!

- عَمّي داأَگُلَّكْ ماأريدَه، بَسْ أريد المجلة.

- الإثْنين يِنْباعَنْ سُوِيَّة.

فرفضت وأعدت الكتيب والمجلة له وقرَّرت أن أشتريها من مكان آخر.

- ما أريدهَا!

---

(٤٦) خروجي.

(٤٧) ربّما أتبعثر؟

خبّأ الكتيِّب ثانية في المجلة ودمدم وهو يعيد لي النقود:

- شِنْسَوّي يَعْني. هُمَّ يفْرْضوهَا عَليْنا وماكو مُرْتَجَعْ.

أدرك الآن أنّ البائع كان يشبه أحمد كثيراً!

هل ستخرج هذه الكلمات من عزلة هذه الأوراق ومن بياضها؟ أم أنّها ستنتهي في معدة جرذ مخضرم؟ لماذا أعطوني الأوراق؟ هل هي لعبة جديدة؟ هل يمكن أن أثق به؟ بفراستي؟ فراستي التي أدخلتني هنا. هل يمكن أن أحتفظ بهذه الأوراق؟ ليست هذه الورقة الأولى... مزّقت ما كتبته وابتلعته خوفاً ممّا قد يحدث؟

أطلّ المذيع من الباب وقال: نسترعي انتباهكم إلى أنّنا سنذيع عليكم تصريحاً مهماً بعد لحظات. واختفى وظهر ثانية بعد أغنيتين ليقول:

أيُّها السيّدات والسادة، صرّح ناطق رسميّ بما يلي:

«يا أبناء الوطن والأمة

لقد انتصرتم بعد حرب ضروس خاضتها جحافل جيشنا الباسل بقيادة فارس الأمّة، بطل النصر والسلام، ضدّ قوى العدوان والشرّ والظلام. انتصرتم بحكمة قائدنا الملهم وبشجاعتكم التاريخية في الذود عن حمى الوطن. لقد ساد الوضوح وعمّت الشفافية أرجاء الوطن. واستأصل جندكم الأشاوس آخر فلول الغموض والإبهام وأشرق المعنى البهيّ مبشّراً بعهد جديد من الرخاء والعدل. ومن أجل حماية الوطن

والأجيال القادمة من شرور الأعداء الحاقدين، فقد أصدر القاعد[٤٨] الضرورة مرسوماً يقضي بمصادرة كافة المعاجم والقواميس التي حاول العدوّ استغلالها لزرع بذور الفتنة. هذا وسيتمّ إحراقها في احتفالات شعبية تعمّ أرجاء البلد. فليحتفل شعبنا العظيم باستعادة زمام المعنى الواحد الذي حاولت زمرة من الأوباش والغوغاء اغتصابه. كما أمر القاعد وزير الداخلية بتوزيع قائمة الكلمات الأساسية ومعانيها الواضحة على كلّ مواطن ليكون كلّ منّا حارساً للمعنى. وأصدر توجيهاته السديدة لوزارة التربية بتلقين الأطفال هذه الكلمات وجعلها مادّة أساسية في المراحل المبكِّرة. كما تمّ إصدار قائمة بأسماء الرئيس القاعد ودلالاتها وقواعد استخدامها. ومنعت اللغات الأجنبية واللهجات المحلية التي تشجّع الانفصاليّين والمندسّين من أعداء الوطن (إلاّ لهجة الرئيس القاعد التي صادق عليها المجلس الوطنيّ لهجةً رسميةً لما حباها اللّه به من فصاحة وبهاء). كما أصدر الملحس[٤٩] الوطنيّ الذي تمّ انتخاله[٥٠] ديموقراطياً قانوناً يقضي بإيقاع عقوبة الإعجام[٥١] بكلّ من تسوّل له نفسه نشر العموض والإبهام أو تعاطيهما، والمسّ بوضوح المعنى

---

(٤٨) القائد.

(٤٩) المجلس.

(٥٠) انتخابه.

(٥١) الإعدام.

الذي ضحّى من أجله الشهداء بدمهم الغالي. كما ستتمّ محاكمة كلّ من يقترف جريمة التفسير بصورة انفرادية وخارج إطار لجان التحقيق الرسمية التي ستشكّل بالتنسيق بين وزارتي الداخلية والثقافة، والتي ستنحصر صلاحية التعامل مع النصوص بها. هذا ويمنع منعاً باتاً استيراد السياقات الأجنبية إلى داخل الوعي الوطنيّ. وليخسأ الخاسئون!

كانت تمشي كلّ يوم إلى كنيسة القلب الأقدس وفي بعض المناسبات الخاصة مثل أعياد القديسين أو الشهر المريميّ. كانت تذهب إلى كنيسة أمّ الأحزان في عقد النصارى في بغداد القديمة، وتقول لي إنّها ستتأخر هناك. كنت أحبّ تلك الكنيسة لأنّها كانت تأخذني إليها عندما كنت طفلاً. أحببت هيبة الطقوس والبخور قبل أن تقودني الكتب بعيداً عن الإيمان. ولا أزال أذكر عشّ اللقلق الذي كنت أراه على قبتها. فيها اشتركت في طقوس التناول الأول، والتي كان من المفترض أن يدخل بعده يسوع إلى قلبي. وفيها غسل «أبونا» رجليَّ مع مجموعة من الفتيان، كما فعل المسيح مع الرسل. رفضت الاشتراك في البداية لكنّها أصرّت وحلّفتني بذكرى والديّ. لكنّ «أبونا» لم يقبّل قدميّ كما فعل المسيح، بل اكتفى بتقريب شفتيه منها بعد أن غسّلهما بالصابون والماء. غضبت جدّتي عندما أخبرتها عن القبلة الناقصة واتّهمتني بتلفيق التهمة. فـ«أبونا» ممثّل المسيح على الأرض، ولا يمكن أن يغشّ. كانت تلك فاتحة خلافاتنا أنا

وهي حول الكنيسة ورجالها. غضبت أيضاً عندما رفضت تقبيل يد المطران الذي كان يزورنا في العيد. قالت بأنني أقبّل الخاتم الذي في يده، وهو رمز، وليس اليد نفسها!

كان تاريخ البلد يتطوّر ويتعرّج في مسيرته، وهي في الكنائس تصلّي وتؤرِّخ له في ذاكرتها بالكنيسة التي كانت فيها يوم الحدث. فعندما قتل الملك غازي كانت في كنيسة أمّ الأحزان، لأنّ بيت جدّي كان في عقد النصارى. وفي حركة رشيد عالي الگيلاني كانت في... وعندما جاء البعثيون كانت في كنيسة كرادة مريم. لكلّ حدث كنيسة. كنت أقول لها إنّ المفروض أن تذهب إلى الكنيسة مرّة في الأسبوع يوم الأحد، كما جرت العادة وليس كلّ يوم. ولم تكن العقود السبعة قد تركت أثراً واضحاً باستثناء الشعر الأبيض وضعف في الكلية. بعد وفاة والديَّ في حادث سيّارة عندما كنت في السادسة، تولّت هي تربيتي. كانت دائماً تردِّد إنّ اللّه كان يجب أن يأخذها هي ويترك والديَّ ليرعياني. رغم انتقاداتها للوضع التي كانت تشتدّ مع ازدياد أسعار الخضر والفواكه وشحّة البيض ومعجون الطماطم، إلاّ أنّها كانت تعزو كلّ شيء للقدر، وكانت مقتنعة بالواقع وبأنّ الأمور دائماً تسير للأسوأ:

- ليش اللّي رخييجي رَخيكون أحسن؟ هذا الشعب مَيِنْحكم إلاّ بالحديد!

كان أكثر ما يغضبها هو امتداد نشرة الأخبار المسائية

لساعات وتأخير المسلسلة المصرية بسبب نشاطات القاعد[٥٢] المقدام. فتقول:

- أي هاي شكان؟ طَوَّلْتِمَها!

كنت أشاكسها وأحاول إقناعها بأنّ الممثّلين المصريِّين ينتظرون في الاستديو حتّى انتهاء فعاليات القاعد، فكانت تنظر إليّ باستغراب ولا تدري هل تصدِّق ما أقوله أم لا. وكنّا دائماً نصل إلى طريق مسدود في نقاشاتنا عن السياسة، فتقول: روح إِنْتَه صير رئيس دَنْشوف شِتْسَوّي!

عدت إلى البيت لأجدها تشرب الشاي وتشاهد التلفزيون كعادتها.

- هلا ،هلا، اللّه يقوِّيك... جيت بوقتك... تعال أشرب هالچاي السنگين.

كان الضبّاط والجنود يقفون صفّاً واحداً حول القاعة بحسب الرتبة، وقد تمّ تثبيت مشبّك ذهبيّ على صدور بدلاتهم إلى اليسار، ليعلّق عليه نوط الشجاعة من قبل المهيب الركن القاعد العام للقوّات المسلَّحة والذي كان، بمحض الصدفة، يشغل منصب رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس مجلس قيادة الثورة وأمين سرّ القيادة القطرية للحزب. ودخل القائد من يمين الشاشة وصرخ صوتٌ: إستاااااااعِدْ! واستعدّ الجميع. دخل

---

(٥٢) القائد.

وراء القاعد بخطوات وزير الدفاع وعدد من القادة بالإضافة إلى مرافقيه. مرّ بالصفوف ووقف أمام كرسي كبير من الخشب المطلي باللّون الذهبيّ، وتوزّع من معه إلى اليمين واليسار. ثمّ انتقلت الكاميرا إلى مدير دائرة المراسم والتشريفات في ديوان الرئاسة ليقرأ المرسوم:

نظراً للشجاعة الفائقة التي أبداها الضبّاط والمراتب المدرجة أسماؤهم أدناه في الذود عن كرامة الامّة وشرفها وإعلاء راية العراق عالياً في معركتنا العادلة ضدّ العدوّ الغاشم، فقد رسمنا بما هو آت: منح نوط الشجاعة من الدرجة الأولى ومن النوع العسكريّ لكلّ من. . . ثمّ تبدأ قراءة الأسماء. ثمّ يتقدّم القائد نحو الواقفين ويلتقط النوط من الطبق الذي يحمله أحد الجنود ويشنكل النوط بالمشبك ثمّ يمسك بحامل النوط من كتفيه ويهزّهما قائلاً: مبروك، ويتلقّى الشكر متبوعاً بكلمة «سيِّدي». وهكذا، على المنوال نفسه. كان البعض يدير رأسه إلى اليسار علامة على الاحترام. وكان هو أحياناً يسأل الجنود عن أصلهم ومدنهم أو قراهم: «وين هَلَك» وقد يجيبهم: «سَلِّمْلي عَليهُم».

وباستمرار الحرب تزايدت المعارك والانتصارات ومعها سهولة الحصول على الأنواط التي صارت تعطى بالجملة أحياناً. وتمّ تخصيص لقب «أصدقاء السيِّد الرئيس» للذين عندهم ثلاثة أنواط أو أكثر، وكانٍ هؤلاء يتلقّون مكافآت خاصة بضمنها سيّارة وقطعة أرض، ولا يمكن أن يحاكموا في المستقبل على

أيّة جريمة. كان القاعد أحياناً يشرك نوابه في عملية التقليد، خصوصاً عندما تكون الأعداد كبيرة. لكنّه كان يحرص على تهنئة الجميع بنفسه بهزّة الكتف بعد ذلك. وجرت العادة أن يستمع إلى قصص البطولات من الجنود والضبّاط:

- يلله مِنْهو يْحَچيلْنَا؟

وقف أحد الضبّاط ذلك اليوم أمام الميكروفون الذي قرأ منه رئيس دائرة المراسم المرسوم، ليقصّ قصّته بعد أن أدّى التحية وأعلن الرتبة والوحدة والقاطع الذي قاتل فيه. كان أحياناً يقاطع المتحدِّثين ليبدي توجيهاته السديدة. تحدّث الضابط عن تفاصيل هجوم لاستعادة موقع احتلّه العدوّ... وكيف أنّه كان في مقدِّمة الصولة بالرّغم من رتبته العالية. فقاطعه القائد قائلاً إنّه برغم الشجاعة العالية والرغبة في التضحية والحرص، فإنّ على الضبّاط ذوي الرتب العليا أن يظلُّوا في الخلف لتأدية دور أكثر فعالية ولإصدار الأوامر وتوجيه العمليّة.

واتّفقت جدتي معه:

- كلامه مضبوط.

ذكّرتها أنّه لام أحد الضبّاط في حفل تقليد أنواط قبل عدّة سنوات على بقائه في المؤخِّرة، وقال إنّ الضبّاط يجب أن يكزنزا رأس الحربة لكي يشحذوا من همة وحماسة جنودهم. وذكّرتها بأنّنا كنّا يومها نجلس أمام التلفزيون ونشرب الشاي كعادتنا.

- أشو ما أتذكّر أنا. هاي من جيبك طَلّعْتها هَسَّه!

- لا، واللّه!

- لا تحلف باللّه.. وأنا أعرفك لا دين ولا ديانة.

- يعني قابل تريدين أحلف بالشيطان؟

- باسم الآب والابن وروح القدس. إنت تعرف ماحب هالحكي. ليش تريد تداهرني؟

سمعت صوت الباب يفتح في الظلام. انسلّ الألف من الباب متبختراً وكان يشعّ بضوءٍ بنفسجيّ ساحر أضاء ليلي. وقف أمامي وخلع الهمزة التي كان يرتديها على رأسه كقبّعة. رماها خلفه فارتطمت بالجدار الذي تحوّل فجأةً إلى مرآة كبيرة. انحنى أمامي باحترام ثمّ أشار إلى الباء، الذي كان قد أطلّ برأسه، بالدخول. دخل الباء ووراءه التاء والثاء. تخلّصت من نقاطها بعد أن انحنت أمامي هي الأخرى. كان كلّ حرف ينظر بعدها إلى نفسه في المرايا ويضحك، ثمّ يبدأ بالرقص والقفز والدوران. دخلت الحروف تباعاً.. الجيم والحاء والخاء، ثمّ الدال والذال والراء والزاي والسين والشين. تصاعدت الضحكات وتساقطت النقاط تباعاً. وبدأت الحروف التي لم تكن تحمل نقاطاً بحمل النقاط من الأرض ووضعها في عروتها أو على رأسها أو تحتها ثم النظر إلى المرآة. وراحت أخرى تشاكس أخواتها فتسرق النقاط منها قبل أن تخلعها. سرق السين نقاط الشين وضحك بصوت عال ثمّ وضع سبابته على فمه وهو

يقول: «ششششششش». اللام التقط همزة الألف ويدأ يصرخ «كاف أنا». الهاء والواو وقفا في الزاوية يضحكان. الميم نام على بطنه ورفع رأسه واعتمر نقطتين التقطهما من الأرض. تصاعدت ضحكات شبقة وتراقصت الحروف في كلّ مكان، تواقع بعضها بعضاً بأوضاع مختلفة ومحظورة. ثمّ انكسرت المرآة وداهم الحفلة جنود بدأوا بإطلاق نيران رشاشاتهم نحو الحروف التي خرّت ساقطة.

واستيقظت لأجد نفسي هنا(ك).

- ها... شكو أخبار بالجريدة؟

عيناها احتفالان بالاخضرار يفوح منهما عطر النعناع أو واحتا فرح في شمس نهار مملّ. حملني المطر البارد في صوتها بعيداً عن الأكاذيب اليويمة التي تحفل بها الجريدة، والتي كنت، للأسف، مدمناً على قراءتها. كانت ترتدي قميصاً أبيض بياقة كريمة الفتحة وتنّورة رمادية ضيِّقة تكشف عن ركبتيها وحذاء أحمر، وكانت تضع الجاكيتة الزرقاء حول ساعدها الأيسر مع بعض الكتب. لم يكن بإمكان الزيّ الموحَّد المفروض علينا أن يهدّئ من جمالها. كان علينا جميعاً أن نلتزم به: قميص أبيض وبنطلون رصاصيّ (تنّورة للطالبات) وجاكيتة زرقاء. كانت بعض الكليات أقلّ حزماً في تطبيق النظام، لكن، كليتنا كانت، لسببٍ ما، مهووسة به وبمنع اللحى. كانت الفمرة التي تكمن وراء الزيّ الموحد، كما قيل لنا، هي إخفاء الفروق الطبقية بين

الطلاّب والطالبات. كان هذا يناقض ما نسمعه ونقرأه ليل نهار من أنّ الثورة محت الفروق الطبقية، ولم يعد هناك محلّ للفقر ولا الفقراء في مجتمعنا الراقي. كما أنّ الفرق ظلّ واضحاً بين من كان يرتدي الصناعة المحلية وأولئك الذين كانت أموال عائلاتهم تسمح لهم بشراء المستورد والثمين. وبتعيين وزير التعليم العالي والبحث العلميّ الجديد، والذي كان قبل ذلك أميناً للعاصمة وكوفئ على إنجازاته بتنظيف شوارع بغداد والإسراع في جمع القمامة بضرب العمّال بنفسه في الصباح الباكر، كوفئ بتعيينه وزيراً للتعليم، ولم يكن قد أنهى دراسته الثانوية. بتعيينه أصبحت مسألة الزيّ الموحّد مقدّسة، وطلب من الأساتذة أن يخرجوا الطلاّب الذين لا يلتزمون بالزيّ الموحّد من قاعات المحاضرات. كان الشخص المسؤول عن الزيّ الموحّد في كلّيتنا يركض وراء الذين يخالفون ويمسك بهم لإخراجهم من الكلية.

- أهمّ أخبار اليوم إِنَّه الزوراء رحيلعب ويّه الرشيد.

- إِنتَ من جماعة الطوبة؟

- إِي... زورائي قديم. ليش إِنتِ من المعادين إِلهَا؟

- لا، أشوف اللعبات من تطلع بالتلفزيون.

- وما تشجّعين أي فريق؟

- لا. محايدة، بعيد عنك. بس أحبّ البرازيل.

- ومنو ميحب البرازيل؟

ابتسمت ونظرت إلى ساعتي، ولأنّي أعرف احتمالات الزحام في المواصلات العامة خصوصاً في أيّام المباريات المهمة، أدركت بأنّي يجب أن أتحرَّك وإلاّ فلن أدرك صافرة البداية. كنت أودّ أن أستزيد في الحديث معها، لكنّي أكره أن يفوتني منظر خروج فريقي إلى الساحة. فقلت وبصوتي شيء من الأسف:

- تعذريني، بس لازم أروح للملعب حتّى ألْحَگ عاللعبة.

- ومَتِغْزِمني؟

فوجئت بسؤالها.

- لا. أهلاً وسهلاً. يا ريت تجين، بس تره رحيكون أكو تلث أربع بنات بالملعب وبَسْ!

- وشنو يعني. لازم نغيّر هالوضع. تمام لولا؟

ففرحت وحملت كتبي من المصطبة...

- طبعاً. يلّله خلّي نروح.

- نگدر ناخذ سيّارتي.

كنت أعرف أنّ لديها سيّارتها الخاصة وشاهدتها أكثر من مرّة تخرجها من الموقف الخاصّ بالكلية، ولكن لم أتوقَّع أن تتطوّر الأمور بهذه السرعة. ركبنا في سيّارتها واتّجهنا جنوباً باتّجاه ملعب الشعب على الطريق السريع. طلبت منّي أن أعطيها نبذة قصيرة عن دوري كرة القدم وأوضاع الفِرق وسبب هوسي بنادي الزوراء. أحسست أنّ من واجبي أن أحذّرها بأنّ حضور

مباراة بكرة القدم لم يعد بسيطاً كما كان في الماضي. فمنذ دخول «الأستاذ» فلذة كبد الرئيس القائد حقل الرياضة وتأسيسه لنادي الرشيد وانتخابه رئيساً للجنة الأولمبية، بدلاً من الموظفين المدنيين، أصبحت قوات الطوارئ التابعة للقصر مسؤولة عن ترتيبات دخول المتفرِّجين إلى الملعب في الأيّام التي يحتمل أن «يرعى» فيها الأستاذ المباراة. كان الأستاذ قد أجبر أهمّ اللاعبين على الانتقال إلى ناديه ملوّحاً لهم بالمغريات تارة وبالتهديدات تارة أخرى، حتّى صار ناديه هو المنتخب الوطنيّ ما خلا لاعب أو اثنين من الكبار الذين رفضوا المغريات. بعد إلغاء وزارة الشباب وحلول اللجنة الأولمبية محلّها، جرت انتخابات ولم يرشّح أحد نفسه سوى الأستاذ الذي انتخب بالإجماع. كان نادي الرشيد يحظى بدعم مادّي لامحدود، وكان تابعاً إدارياً للقصر الجمهوريّ. كان فعلاً، كما قال متفرِّج مصريّ في الملعب ذات مرّة، «النادي بتاع الحكومة». وهكذا كان البعض يذهب إلى الملعب ليهتف ضدّ الرشيد. ذات مرّة سألني متفرِّج يجلس بجانبي إذا ما كان كاظم وعل سيلعب. فذكّرته بأنّه اعتزل اللعب منذ سنوات بعد إصابته. فقال: يلّله، المهمّ نشجّع ضدّ الرشيد.

- مِسْتِعِدّة تِهِتْفين ضد الحكومة؟

- إذا إنتَ تِهْتِف، آني أهْتِفْ. بس لَتِطْلَع من إِيّاهُم.

وضحكت.

- وشلون أعرف إِنتي مو وِحْدة منهم؟ بس آني فْضَحِت نفسي بعد كل اللي گِلْتَه.

- إِي، دير بالك. بس يمكن تريد تنصبلي فخ حَتَّه أحچي. تبوگ لساني.

- استغفر اللّه.

ابتسمتُ وفكّرتُ أن أقول لها إنّ سرقة لسانها واعتقاله بين لساني كان واحداً من أهدافي منذ رأيتها لأوّل مرّة. أعجبتني جرأتها ومناوراتها في هذه المرحلة المبكرة. قرّرت أنّنا لا يمكن أن نجلس حيث أجلس عادة في القسم الرخيص والمكشوف، لأنّها ستتعرّض لمضايقات.. واقترحت القسم المغطّى مع أنّه أغلى بكثير، لكنّ كراسيه مريحة. كانت بقية الأقسام عبارة عن مصاطب كونكريتية يحتشد عليها الناس في المباريات المهمة. تذكّرت أنّ فلاح كان سينتظرني في مكاننا المتّفق عليه في الجانب الآخر، لكنّه بالتأكيد سيفهم سبب غيابي عنه بعد أن أشرح له الموقف. أوقفنا السيّارة في الجهة الشمالية تحت جدارية أخرى يظهر الأب القاعد فيها مع مجموعة من طلائع الحزب وهو يضحك ويحتضن واحداً منهم. كانت تحتها عبارة «نكسب الشباب لنضمن المستقبل».[٥٣] سألتني إذا ما كان موقف السيّارات أميناً، فأجبتها فوراً:

---

(٥٣) مقولة الأب القائد (حفظه الله ورعاه).

- لا تخافين عالسيّارة. هُوّ يِخرِسْها.

- هاي شلون ويّاك؟ زين شْمَذْريك آني مدا أسَجِّلَّك هالحچي؟

قالتها متظاهرة بالسلطوية.

- إنتي ثقة.

- شلون؟ بهالسهولة؟... مَصازلك إسبوعين تعرفني.

- إنتي سامعة بالفراسة؟

- إي طبعاً.

- آني عندي فراسة. بعدين إنتي مَيِطْلَعْ مِنَّچْ أذِيَّة؟

- دير بالك لتثق بِيّ أزْيَدْ من اللازم. تره آأذّي!

بدأنا نسير نحو أكشاك البطاقات واقتربت منها عمداً ووشوشت في أذنها:

- معقولة كلّ هالنفط والثروات وماعدنا غير هالملعب الصغير، يوسع بس ٤٥ ألف. چمالة مسمّيه «ملعب الشعب». بشرفچ هذا وضع لائق بشعبنا؟

- إي بس إحْنَا بحالة حرب وأكو أولويات.

- وقبل الحرب؟ مو تأمَّم النفط بالـ ١٩٧٣؟ النكتة إنَّه هذا الملعب بناه واحد أرمنيّ چان الوسيط مال شركات النفط. إسمَه كولبنكيان ويسمّوه مستر «فايف برسنت». ويگولون هو اللّي بنى الجامعة المستنصرية.

- إِنتَ مْنين تجيب كلّ هالمعلومات. صُدُگ گُمِتْ أخاف مِنَّك.

- سمعِتْها من واحد أرمني بالصدفة. لتخافين!

أشارت إلى الجهة اليسرى، وقالت:

- زين شوف هاي القاعة الداخليّة للألعاب الرياضية مو انْبِنَت بزمن الحرب؟ بعد شِتْريد؟ تدري اللّي صمَّمْها واحد من أهمّ المعماريين بالعالم؟

- واللّه؟

- أي، معماري فرنسيّ فاز بالمناقصة. أبويَا مهندس معماري.

كنت على وشك أن أقول لها: طبعاً، «انبني بيد ونحارب بأخرى»،[٥٤] لكنّي لم أشأ أن أخيفها أكثر من اللازم، كما أنّنا كنّا قد وصلنا إلى أكشاك بيع البطاقات. أرادت أن تدفع، لكنّي رفضت وقلت لها يكفي أنّها أوصلتنا.. وعندما أصرّت قلت لها يمكن أن تدفع لمرطبات أو قهوة نشربها بعد المباراة فابتسمت ووافقت. ظننت أنّه عذر مناسب لكي أفوز بمزيد من الوقت معها.

بدا الملعب وكأنّه ثكنة عسكرية. كان أفراد قوات الطوارئ بالعتاد الكامل مع رشاشاتهم، وكان مع البعض كلاب بوليسية

(٥٤) مقولة الأب القائد (حفظه الله ورعاه).

أيضاً. البعض منهم يشرف على إيقاف المتفرِّجين في الطابور والبعض الآخر يأخذ البطاقات ويلقي بها في برميل ويفتّش المتفرِّجين. كان أغلبهم صغاراً في العمر لا يبدو أنّهم تعدّوا العشرين. معظمهم من المناطق المحيطة بتكريت كما بدا من لهجتهم.. وكانت وجوههم عابسة، ربّما تعكس التدريب القاسي الذي يمرُّون به. لأنّ هذا القسم أغلى ولأنّه الذي يجلس فيه المسؤولون الرياضيون أيضاً، فقد كان أكثر ترتيباً وأقلّ عنفاً من القسم الشعبيّ الذي أجلس فيه عادةً. هناك كانوا يستعملون العصيّ مع المتفرِّجين لترتيب الطوابير ويطلقون عنان الكلاب البوليسية لإخافتهم. كنت دائماً أضحك في سرّي وأقول لنفسي إنّنا تقدّمنا كثيراً وأصبحنا في مصاف الدول الأوروبية، حيث يدفع الناس أجوراً للدخول إلى نوادي الساديّين والماسوشيّين لكي يُضرَبوا ويَضرِبوا. وهنا تدفع الدولة رواتب لهؤلاء لكي يضربونا وندفع نحن لتدخل إلى هذا الكرنفال السورياليّ. الحُبّ كِدَه، كما تقول السيِّدة... حبّ كرة القدم وحبّ الزوراء. كانت جدّتي دائماً توبِّخني وتقول لي إنّي يجب أن أبقى في البيت وأشاهد المباريات على التلفزيون لكي لا أتعرَّض لإهانات هؤلاء. لكنّ التلفزيون لا يعرض إلاّ المباريات المهمة. كانت تردِّد «شصار هذا الزوراء؟ رِخْياخِذ عقلك».

- ما أَحِبّ الچلاب!

همست لي كي لا يسمعها أحد.

- لَتْخافين! هاي أليفة. قلت ساخراً.

لم يجرؤ الجنديّ على تفتيشها هي واكتفى بتفتيش حقيبتها اليدويّة. ثمّ قال لها، بلطف نادر، «إِتفَضلي خَيْتي».

خطت أريج خطوتين ووقفت تنتظرني. بدأ يفتّشني بحركات ميكانيكية من كاحلي متسلّقاً حتّى الخصر ثمّ الظهر والكتفين. ثمّ مرَّر يديه على جيوب صدري وأخذ الجريدة التي كنت قد طويتها بعناية ووضعتها في جيب الجاكيتة الداخليّ لكي لا يراها. وعندما قلت له بأنّي لم أقرأها بعد، ردّ بلهجة عصبيّة:

- ممنوع جَرايِد.

ثمّ ألقى بها في البرميل حيث كانت جرائد أخرى تحترق.
كان الجدال معه سيكون عقيماً وخطراً، لم تفهم لآريج لماذا يأخذون الجرائد. فقلت لها بصوت خافت ونحن ندخل إلى المدرجات «حتَّى مَنُگْعُد عليْهَا».

- لَعَدْ يحِرْگوهَا أحسن؟

فكَّرت بالهدر وبالورق الذي يضيع، وبالقرار الذي كان قد صدر قبل فترة، والذي يحذّر الناس من رمي الجرائد في القمامة لأنّ صورة القاعد(٥٥) كانت على الصفحة الأولى كلّ يوم، وكان الناس يستخدمون الجرائد على موائد الأكل ولتنظيف الشبابيك وغيره.

---

(٥٥) القائد.

- لو يِذرون شيصير بالجرايد. قلت لها ضاحكاً.

- شيصير؟

- بَغْدين أكُلِّج.

كنّا قد أصبحنا داخل الملعب وتصاعدت هتافات المشجِّعين «زوراء. . . زوراء. . . زوراء». قرَّرت أنّه يستحسن أن لا أوغل في البذاءة معها من الآن وأن أنتظر. كيف أقول لها، في تلك المرحلة المبكِّرة، بأنّي أخالف القوانين في حياتي الخاصة باستمرار وأنتقم من النظام على طريقتي الخاصة. فكلَّما كانت هناك أزمة ورق تواليت كنّا نضطرّ لاستعمال الجرائد. وكنت أختار الصفحة الأولى لأنّها تحفل بالصور وبالافتتاحيات، وكنت أعكس الآية وأصبح أنا القاعد فأقعد عليه وأسمح لشاربيه أن يمشِّطا استي. طبعاً كان هناك دائماً احتمال، وإن كان مستبعداً، أن يجد زبّال فضولي آثار الجريمة. لذلك قرَّرت أن أكون أكثر حذراً وبدأت بإرسال القاعد[٥٦]، وأحياناً ضيوفه الذين كانوا يحلّون علينا أيضاً، في جولة حرّة في بغداد السفلى وكنت أودّعهم بسيل من المياه. فقد علَّمتنا التقاليد أن نرش الماء بعد أن يتركنا من نريد عودته!

كانت معظم المقاعد مشغولة، لكنَّنا وجدنا كرسيين في موقع استراتيجيّ يطلّ على الدائرة الوسطية. بمرور الوقت

---

(٥٦) القائد.

أخذت المقاعد تمتلئ باستثناء زاوية صغيرة في الجهة اليمنى من الملعب خلف واحد من المرميَيْن. كانت سواري الأعلام التي ترفع أعلام الفرق الزائرة وعلم الفيفا أو الاتّحاد الآسيويّ لكرة القدم قد وضعت هناك. وكان أحد العباقرة قد قرَّر أن يضع صورة كبيرة له ويعلّقها على السواري بحيث تواجه الملعب (ربّما لكي يشاهد القاعد كلّ المباريات)، وبذلك أصبحت المدرّجات الواقعة خلف الصورة ميّتة، حيث لا يمكن رؤية المستطيل الأخضر منها. كنت أنظر إلى تلك الجزيرة من المقاعد الخالية في بحر من ٤٥ ألف متفرج. ترى هل هناك من سيجرؤ ويقترح إزالة الصورة للسماح لعدد أكبر من المتفرِّجين بأن يستمتعوا بالمباريات؟ كان على المقاعد أن تنتظر انقلاباً أو ثورة ليعود إليها المتفرِّجون. أو لتأخذ مكانها صورة أخرى!

كان الرشيد يتصدّر الدوريّ لكنّه كان بحاجة لنقطتي الفوز للمحافظة على الصدارة. وكان الزوراء يشكّل عقدة نفسيّة للاعبي الرشيد. انتهى الشوط الأول بتسجيل الزوراء لهدف رقصت له الجماهير. وفي الشوط الثاني أبدع الحَكَم واجتهد في تفسير قوانين لعبة كرة القدم، فأعطى الرشيد ضربة جزاء لكن مهاجمه أضاعها وألغى هدفاً صحيحاً للزوراء على أساس أنّه تسلُّل. أخذ الجمهور يهتف: «هيه هيه، هذا الحَكَم ناقص». لكنّ الرشيد أفلح في تسجيل هدف في اللّحظات الأخيرة.

أفكر الآن بشفتيكِ وكيف كانتا تداعبان الآيس كريم الذي

تناولناه في الاستراحة بين الشوطين. أكاد أسمع ضحكتك الآن بعد أن أخبرتك أنَّ المجمع العراقيّ أوصى بتسمية الآيس كريم أو الدوندرمة بـ«المثلجات القشدية». وكيف سألتني لتتأكّدي إذا كان الرجال الذين يرتدون بدلات وانتشروا بين المدرَّجات والمقاعد من «إيّاهم». اعتذرت عن توصيلي بعد المباراة يومها، ولم أكن أتوقَّع أن تقومي بذلك، لكنّك أعطيتني رقم هاتفك لكي تعزميني على القهوة التي وعدتني بها.

بعد ليلة تداخلت فيها أصوات الطائرات والانفجارات مع كوابيسي حتّى ظننت أنّي أحلم بالحرب، أو أنّ الإيرانيّين استعادوا قوّتهم الجوية وأخذوا يقصفون من جديد، دخل أحمد مبتهجاً وكانت أوّل مرّة يزورني فيها منذ أعطاني الأوراق.

- جيت أبَشّرَكْ. خِلَصْنا. صار انقلاب البارحة وسافر الطاغية لليبيا وطلب لجوء هناك. استلمت الحكم جماعة أسمها «العراق الحرّ» وصدر عفو عام عن كلّ المحبوسين. فحَضِّر نَفْسَك حتّه تطلع. رِحْاْحچي ويّ الجماعة حتّى يرتبون طلعتك وبلكي تطلع اليوم وتروح لأهلك. ثمّ قبّلني على خدي وهو يعانقني بحرارة ويقول: مبروك إلك وإلْنا كُلْنا. نِسْتاهل!

لم أصدّق ما يحدث. كان عندي العشرات من الأسئلة عمّا دعاه لأن يعطيني الأوراق وعن التطوّرات المفاجئة. وأردت أن أشكره على موقفه، لكنّه وقف وقال:

- ياريت نُگْعُد گَعْدَة طويلة ونِحْچي. أريد أقرا اللّي كتبته،

إذا ما عندك مانع طبعاً، بس لازم أروح أمرّ عالبقيّة وأبشّرهم.
تواعِدْني إنّه تمُر عليّ بالمستقبل. وضحك وأضاف: بس مو هنا طبعاً!

– طبعاً. شكراً. . . شكراً جزيلاً.

– لا شكر على واجب يَمعوّد! يلّله في أمان اللّه.

– في أمان اللّه.

شعرت بفرح كنت قد نسيت طعمه ووجوده في العالم.
فكّرت بأريج وبجدّتي. ستفرحان كثيراً.

كان بعضهم فرحاً، لكنّ البعض الآخر كان متخوّفاً وعصبيّاً، ربّما يفكّرون بمصيرهم؟ زوّدتهم الأخبار الجديدة برقّة وصبر نادرين فسمحوا لي بأطول حمّام منذ دخولي. بقيت نصف ساعة تحت الماء الدافئ دون أن يصرخ أحد بي. خفت أن يكون كلّ هذا حلماً ففتحت صنبور الماء البارد على آخره. قلت ربّما يوقظني الماء البارد، لكنّي لم أستيقظ هذه المرّة. كانت القشرة قد استعمرت رأسي منذ دخولي ففركته بقوّة وأنشبت أظافري فيه حتّى كاد الجلد ينسلخ. أطلقت عنان الليفة في بشرتي أحاول كشط الوجع والوسخ المتراكم برغوة غار العيسى الزكية الرائحة. هه كيف عرفوا أنّه صابوني المفضّل؟ وددت لو أنّ بإمكاني أن أغسل روحي أيضاً، لكنّها كانت أعمق من أن يصلها الماء. أعطوني موسى ومعجون حلاقة ماركة «آدم». لكنّي رفضت حلق لحيتي تعويضاً عن أيّام الجامعة حين

كانوا يمنعوننا من تربية اللحى (خوفاً من أن نكون من حزب الدعوة أو من الإخوان). كنت أحياناً أودّ لو أنّ باستطاعتي أن أقول لهم إنّي مسيحيّ ولست متديّناً أساساً.. ولكن ما الفائدة! أعطوني مرآة صغيرة. يا للرقّة! ففاجأني وجه بعينين كانتا قد غارتا قليلاً فيه واكتفيت بتمشيط شاربي بالمشط الذي أعطوني إيّاه. بدا عثمانياً ولم يكن ينقصني سوى طربوش. أمّا اللحية فقد أضافت وقوراً لم أكن أمتلكه من قبل.

أعطوني ملابس داخلية جديدة وملابس مستعملة عريضة بعض الشيء، لكنّها كانت تفي بالغرض. قميص صيفيّ سماويّ اللّون وبنطلون أسود مع حذاء رياضة. سألت عن كتبي وأوراقي التي كانت معي حين أدخلوني، فقالوا بأنّهم لا يعرفون شيئاً عن مصيرها ووعدوا بأن يبحثوا عنها ويتّصلوا بي لإعادتها لي. سألت عن أحمد كي أسلّم عليه وأشكره ثانية، لكنّهم قالوا بأنّه كان مشغولاً ولن يعود إلى اليوم التالي. أعطوني هويّتي وورقة تثبّت أنّي من المشمولين بالعفو وعليها دمغة بنفسجية!

فتح أحدهم باباً وأشار لي بأن أمشي بخطّ مستقيم وسأجد مخرجاً في نهاية الشارع. كانت الأمن العامة قد صادرت وابتلعت الكثير من البيوت وضمّتها إليها.

قبل خروجي مررت بالكابينة الرئيسيّة وكان الحارس يستمع إلى الراديو. أدهشني أنّ صوت المذيع يشبه صوت أحمد بعض الشيء!

كان كلّ شيء هادئاً خارج البوّابة الخارجيّة. لم يكن هناك الكثير من السيّارات في الشارع. أبصرت عمودي دخان من الناحية الشمالية. قبّلت خدي ريح باردة وخجولة كأنّها ترحّب بي في شوارع بغداد من جديد، وكانت الريح نفسها تحاور أغصان الأشجار الباسقة على جانبي الشارع فتبادلها بحفيف جميل. خطرت لي فكرة بسيطة وعميقة في الوقت نفسه: أليست الحريّة أجمل إحساس في الوجود؟ الحريّة اليوميّة البسيطة التافهة. لم أسمح لعلامة «ممنوع المشي» التي كانت تطعن الرصيف بأن تعكّر مزاجي. ما أحلى أن أمشي دون أن يصفعني الجدار! بحثت عن الشمس لكنّها كانت تختبئ بخجل خلف البنايات العالية. لم أدرك مدى حبّي لها إلاّ بعد أن حرمت منها! عبرت الشارع وقرّرت أن آخذ سيّارة أجرة إلى البيت لأعانق جدّتي وأقبّل يديها.

ليس هناك سيّارت أجرة! مشيت أكثر وأنا أدور وأبحث عن سيّارة. كانت صفحات بعض الجرائد القديمة وعليها صورة القاعد تركض أمامي وقد حملتها الريح. فكّرت أنّ الفرحة قد تكون أكثر ممّا يتحمّله قلب جدّتي. ستقتلها رؤيتي هكذا بدون مقدّمات. سأتصل بها أولاً. وسأتّصل بأريج وأقول لها أن حبّها ساعدني على الصمود، وأطلب منها أن تذهب إلى بيتنا لتهيّئ جدّتي للخبر ولعودتي بطريقتها الخاصّة. يمكن أن تقول لها بأنّها سمعت أخباراً عنّي.

كانت الجدارية التي تقف أمام الأمن العامّة قد لطّخت بالصبغ وقد رسم أحدهم قروناً على رأس القاعد[٥٧]. ابتسمت وتنفّست الصعداء. كم كنت أحلم بيوم كهذا! ترى أين هو الآن؟ أما زال يبتسم ابتسامته البلهاء؟ ماذا سيفعلون به؟ كانت هناك شعارات كثيرة على الجدران «يا بغداد ثوري ثوري... خَلّي الظالم يلحگ نوري»... «أعمار الطغاة قصار»... «إذا الشعب يوماً أراد الحياة».

بحثت عن هاتف عموميّ. ووجدت كابينة بالقرب من تسجيلات جنّة العصافير التي كنّا نأتي إليها أنا وأريج لشراء الموسيقى. كانت كلّ المحال مقفلة. رقص قلبي وأنا أفكّر بأريج وأتشوّق لسماع صوتها، وعندما مددت يدي إلى جبيني تذكّرت أنّي لا أملك شيئاً. ضاعف من خيبتي أنّ الهاتف كان عاطلاً وأنّ السلك الذي يربطه بالسمّاعة كان مقطوعاً. واصلت المشي نحو ساحة الأندلس. رفعت يدي محاولاً إيقاف سيّارتين كانت قد مرّتا مسرعتين لكنّهما تجاهلتاني. من سيقف في يوم كهذا؟ شاهدت حافلات نقل الركّاب الحمراء واقفة في ساحة الأندلس أمام كنيسة اليعاقبة بالقرب من فندق السدير نوفوتيل. وتذكّرت كيف أنّ جدّتي كانت دائماً تصرّ على تسميتها باسمها القديم «ساحة الزعيم». وكيف كانت تبالغ في مدحه. فد يوم طلَع من بيته وراح عالمكتب مالته بوزارة الدفاع وبعد نُص ساعة

---

(٥٧) القائد.

مَوَصَل وماكو لا حِسْ ولا خبزْ. انْقَلَبِت الدُّنيا وخافو لَيْكون صارلو شي. وقامو يْدَوْرون علينو. تُعْرُف وين شافونو؟ كان قيْعِد فَيتَرَيْگ ويشْرب چاي وِيّ العَمّالة بالجندي المجهول اللي كانو قَيِبْنونو بْهَذاك الزَّمان. أشو شْكان بينو راحو هَدَّمونو؟ أنْجَخ حلو كان! وكنت أتّفق معها بأنّ الجنديّ المجهول الجديد الذي شيّد بالقرب من القصر هو من أقبح ما يكون. ترى هل سيهدم هو الآخر أم يحوّل إلى متحف لسنين البؤس والقبح؟ ربما يمكنني أن أستقلّ حافلة إلى بغداد الجديدة وأمشي من هناك إلى البيت. يمكن قطع المسافة من هناك إلى البيت بثلث ساعة. سيسامحني السائق عندما أريه الورقة التي تثبت أنّي خرجت للتوّ من السجن. عندما وصلت إلى الحافلات وجدتها مقفلة وخالية وكذلك الموقف بأكمله. يمكن أن أواصل المشي إلى البيت وسأصل في ساعة ونصف. سأشحذ ما يكفي لإجراء مكالمة هاتفية إذا ما رأيت مخلوقاً آخر. بدأت أشعر بالتعب وبألم حادّ أسفل ظهري. جلست على المقاعد البلاستيكية البيضاء في موقف الحافلات أفكّر بما سأفعله هنا(ك). فهذه هي الورقة الأخيرة. متى يجيء أحمد ثانية؟ سأطلب منه المزيد من الورق. نعم.. أريد أن أكتب المزيد. ربّما أطلب منه أن يتّصل بجدّتي وبأريج ليطمئنهما عليّ ولتعرفا بأنّي هنا(ك). سيطفئون النور بعد قليل. أين أنت يا أحمد؟

* * *

مُلْحَق

طبقاً للتعليمات الواردة في كتابكم رقم ٢٣٤٧٥٨ج بتاريخ ٢٣ آب ١٩٨٩، قمت بالاطّلاع على المخطوطة المرفقة أدناه وبتنقيطها وطبعها بالآلة الكاتبة. يبدو أنّ النصّ عبارة عن خواطر غير متسلسلة ومشاهدات واستذكارات غير منطقية لحوارات كتبها أحد السجناء.

لقد تردّدت كثيراً في كيفية التعامل مع الوساخات والبذاءات الواردة في المخطوطة. لكنّي حرصت على الإبقاء على النصّ الأصليّ على الرغم من ورود هذه العبارات والتعابير المقزّزة والتي كتبت بشكل يستهزئ ويستخفّ بمقولات الأب القائد (حفظه اللّه ورعاه) وبقيم الحزب والثورة ومنجزاتهما وبمعركتنا العادلة ضد العدو الغاشم. فقد يساعد هذا في الكشف عن هوية الكاتب وكلّ من سَهَّلَ له اقتراف هذا الفعل الشائن.

لقد زوّدت النصّ بالهوامش في أكثر من موضع للإشارة إلى ما قد يرمي إليه كاتب النصّ كما وضعت الفواصل والنقط. لقد

وردت بعض الحوارات باللهجات العاميّة وبعاميّة المسيحيّين أيضاً، وقد ساعدني أحد الإخوة المسيحيّين في التمكّن منها. كان الخط عموماً في غاية الرداءة والصعوبة. كما لم أتمكّن من قراءة بعض الأوراق التالفة. لكنّي أبقيت على التسلسل الذي استلمت الأوراق به. ودمتم سنداً للنضال!

مع فائق التقدير والاحترام

طلال أحمد

١ أيلول ١٩٨٩

ملاحظة

* نشرت الرواية للمرة الأولى أواخر عام ٢٠٠٢ عن دار الآداب، لكن الهوامش التي تضمنها النص سقطت، لسبب ما، في تلك الطبعة. وتم حل المشكلة آنذاك بإضافة ورقة واحدة تتضمن كل الهوامش. في هذه الطبعة الجديدة التي تصدر عن دار الجمل تظهر الهوامش تباعاً في صفحات الرواية كما كانت في النص أصلاً وكما أراد المؤلف.

هذا الكتاب

انسلّ الألف من الباب متبختراً ووقف أمامي وخلع الهمزة التي كان يرتديها على رأسه كقبّعة. رماها خلفه فارتطمت بالجدار الذي تحوّل فجأةً إلى مرآة كبيرة. انحنى أمامي باحترام ثمّ أشار إلى الباء، الذي كان قد أطلّ برأسه، بالدخول. دخل الباء ووراءه التاء والثاء. تخلَّصت من نقاطها بعد أن انحنت أمامي هي الأخرى. كان كلّ حرف ينظر بعدها إلى نفسه في المرايا ويضحك، ثمّ يبدأ بالرقص والقفز والدوران. دخلت الحروف تباعاً. تصاعدت الضحكات وتساقطت النقاط تباعاً. وبدأت الحروف التي لم تكن تحمل نقاطاً بحمل النقاط من الأرض ووضعها في عروتها أو على رأسها أو تحتها ثم النظر إلى المرآة. وراحت أخرى تشاكس أخواتها فتسرق النقاط منها قبل أن تخلعها. سرق السين نقاط الشين وضحك بصوت عال ثمّ وضع سبابته على فمه وهو يقول: «ششش». التقط اللام همزة الألف وبدأ يصرخ «كاف أنا». الهاء والواو وقفا في الزاوية يضحكان. الميم نام على بطنه ورفع رأسه واعتمر نقطتين التقطهما من الأرض. تصاعدت ضحكات شبقة وتراقصت الحروف في كلّ مكان، تواقع بعضها بعضاً بأوضاع مختلفة ومحظورة. ثمّ انكسرت المرآة وداهم الحفلة جنود بدأوا بإطلاق نيران رشاشاتهم نحو الحروف التي خرّت ساقطة.

واستيقظت لأجد نفسي هنا(ك).

